

سُورَةُ الْقَدْرِ

حِينَ يَنْزِلُ الثُّورُ وَيَتَّسِعُ الزَّمَنُ لِلْأَبَدِ

تأليف: رَدَّادِ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْقَدْرِ

سُورَةُ الْقَدْرِ

حِينَ يَنْزِلُ النُّورُ وَيَتَسَّعُ الزَّمَنُ لِلْأَبَدِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السورة التي أعادت تعريف الزمن

ليست سورة القدر حديثاً عن ليلة مضت ثم انطفأ نورها في ذاكرة التاريخ، وليست بياناً لمزية زمنية معزولة يُستحضر فضلها مرة كل عام، ثم يعود الإنسان بعدها إلى عاداته القديمة وكأن شيئاً لم ينزل من السماء؛ وإنما هي سورة تعيد بناء نظرتنا إلى الوجود كله، فتخبرنا أن الأزمنة لا تتساوى، وأن قيمة اللحظة ليست في طولها الحسابي، بل فيما يتنزل فيها من هداية، وما يفتح خلالها من اتصال بالله، وما تستطيع أن تُحدثه في مصير الإنسان. فقد تمر على المرء أعوام متشابهة لا يتغير فيها شيء من أعماقه، ثم تأتيه ساعة صدق واحدة فتخلع عنه عمراً من الغفلة، وتعيد ترتيب قلبه، وتكشف له الطريق، وتجعله بعد انتهاء إنساناً غير الذي كان قبلها؛ وهكذا تكون بعض اللحظات أطول

من السنين، لأن الزمن في ميزان الروح لا يُحسب بما يمضي منه، بل بما يولد فيه.

وسورة القدر، على إيجازها المعجز، تنقلنا بين ثلاثة عوالم متداخلة: عالم الوحي الذي نزل فيه القرآن، وعالم الغيب الذي تنزل منه الملائكة والروح، وعالم الإنسان الذي يقف في الأرض متلقياً فيض السماء، منتظراً السلام حتى مطلع الفجر. وبين افتتاح السورة بضمير العظمة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، واختتامها بانبشاق الصبح: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، تشكل رحلة كاملة تبدأ من عند الله، وتعبر بالكآب والملائكة والمقادير والسلام، ثم تبلغ الإنسان في ظلمة الليل لتوقظه قبل أن يطلع الفجر؛ فكأن السورة تقول له إن الفجر الحقيقي لا يبدأ حين ينتشر الضوء على وجوه الأشياء، وإنما يبدأ حين ينزل القرآن على القلب، فيرى الإنسان بنوره ما كان يمر به في عتمته ولا يراه.

وسوف تقوم رحلتنا في هذه السورة على أصلين متكاملين: أولهما الوقوف عند دلالات الآيات في لغتها وسياقها ونظمها، بحيث لا ننقل اللفظ القرآني من موضعه ولا نحمله ما لا يحتمل، وثانيهما الانتقال من المعنى المباشر إلى آفاقه الإنسانية والتربوية والحضارية،

لأن القرآن لم ينزل ليضيف إلى الذاكرة معلومات عن الماضي، بل ليصنع بالهداية مستقبل الإنسان. وسنقرأ السورة بوصفها إعلاناً عن منزلة القرآن، وكشفاً عن سر البركة في الزمن، وتربيةً على اغتنام مواسم التحول، وتصحيحاً لوهم حديث جعل قيمة الحياة في كثرة الإنجاز المادي وحده، مع أن لحظةً يتطهر فيها القلب قد تكون في ميزان الله أعظم من تاريخ طويل مكتظ بالحركة وخالٍ من المعنى.

ولن نتعامل مع ليلة القدر على أنها لغز حسابي يستنزف الناس في تحديد ليلتها أكثر مما يدفعهم إلى إدراك حقيقتها؛ إخفاء تعيينها الدقيق ليس حرماناً للإنسان من المعرفة، بل تحرير له من عبادة اللحظة الواحدة، ودفع له إلى أن يطرق أبواب الليالي كلها بقلب متيقظ. إن الله أخفى كثيراً من نفائسه في طرق الاجتهاد: أخفى رضاه في الطاعات لئلا يُستصغر عمل، وأخفى سخطه في المعاصي لئلا تُستصغر زلة، وأخفى أولياءه بين عباده لئلا يُحتقر إنسان، وأخفى ليلة القدر في العشر الأواخر لئلا يتحول التماسها إلى موعد عابر يؤدي فيه المرء بعض الشعائر، ثم يغادره سريعاً إلى غفلته القديمة. وما أخفيت الليلة إلا

ليظهر صدق الباحثين عنها؛ لأن الكنوز الكبرى لا تُلقَى على قارعة الطريق، وإنما تُمنح لمن دلّ سعيه عليها أنه يعرف قدرها.

إن السورة لا تريد منا أن نتعجب فقط من ليلة خير من ألف شهر، بل أن نسأل: ما الذي جعل ليلة واحدة تتفوق على هذا الامتداد الهائل من الزمن؟ والجواب الذي يشرق من أول آية هو: القرآن. لقد عظمت الليلة بعظمة ما نزل فيها، واكتسب الزمن شرفه من شرف كلام الله، وهذا يعني أن الإنسان نفسه لا يستمد قيمته من طول عمره، ولا من كثرة ماله، ولا من اتساع نفوذه، وإنما من مقدار ما يحمل من الهدى، وما يحققه من العبودية، وما يصنعه بالحق الذي بلغه. فالليلة وعاء، والقرآن هو السر الذي ملأ الوعاء بالخلود؛ وكذلك الجسد وعاء، فإذا امتلأ بالوحي ارتفع قدره، وإذا خلا من المعنى لم تنقذه سنواته الكثيرة من الضياع.

وهذه واحدة من أعمق رسائل السورة: أن البركة تستطيع أن تهزم الحساب، وأن الكيف يستطيع أن يتجاوز الكم، وأن نعمة من الله قد تعوّض الإنسان عما أضاع إذا أقبل عليه صادقاً. ليس معنى ذلك أن يُهمل العمر اعتماداً على لحظة منتظرة، بل أن يعرف أن باب

الاستدراك لم يُغلق، وأن الماضي مهما ثاقل لا يملك أن يمنع ولادة جديدة. فكم من إنسان عاش طويلاً بعيداً ثم صدق في ليلة، فاختصر الله له الطريق، وبَدَّل اتجاه حياته، وجعل ما بقي من عمره أكثر وزناً من كل ما مضى؛ لأن رحمة الله لا تخضع لمقاييسنا الضيقة، ولأن الله إذا بارك في القليل اتسع حتى تعجز الأرقام عن الإحاطة بأثره.

ثم إن حضور الملائكة في السورة ليس تفصيلاً غيبياً هامشياً، بل مشهد يعيد للوجود وحدته؛ ففي ليلة القدر لا تبدو الأرض جزيرة مقطوعة عن السماء، ولا يبدو الإنسان مخلوقاً متروكاً في صحراء المادة، وإنما تنفتح الجهات العليا، وتتوالى أفواج الملائكة، ويتنزل الروح بإذن ربه، ويتحول الليل الذي اعتاده الناس وعاءاً للنوم إلى ملتقى للغيب والشهادة. وبينما يرى الغافلون ظلاماً وصمتاً، يشهد المؤمن بقلبه كوناً محتشداً بالطاعة، وملائكة تهبط بأمر الله، وسلاماً ينساب في الوجود حتى مطلع الفجر؛ فيدرك أن أعظم الحقائق قد تقع إلى جواره دون أن تراها عيناه، وأن قصور الحواس عن إدراك الغيب لا يعني خلو العالم منه.

وستتوقف كذلك عند كلمة ﴿سَلَامٌ﴾ التي جاءت نكرة مرفوعة، كأن السلام صار هويةً شاملةً لليل كله، لا حادثةً عابرةً تقع في جانب منه؛ سلام من وساوس الشيطان، وسلام تنزل به الملائكة، وسلام يسكبه القرآن في القلب، وسلام المصالحة مع الله بعد طول شتات، وسلام الإنسان مع فطرته حين تتحرر من صخب الشهوة والقلق. فأكثر الذين يدخلون الليلة بأجساد ساكنة وقلوب مضطربة، وما أعظم أن يخرجوا عند الفجر وقد استقرت في أعماقهم طمأنينة لا تستطيع أحداث الخارج أن تنتزعها؛ لأن السلام الذي يأتي من السماء لا يعتمد في بقاءه على هدوء الأرض.

إننا أمام خمس آيات، لكنها تقيم كونًا كاملاً: إنزال من العلو، وتعظيم لليلة، وموازنة تزلزل مقاييس الزمن، وتنزل للملائكة، وجريان للأمر، وامتداد للسلام، ثم فجر يعلن نهاية الليلة وبداية أثرها. وسنقرأ هذه الحركة لا بوصفها مشهداً خارج الإنسان فحسب، بل بوصفها نموذجاً لما ينبغي أن يقع داخله، فالقرآن ينزل إلى القلب، والجهل يتراجع، والمعاني الطاهرة تنزل، وأقدار الروح يعاد ترتيبها، والسلام ينتشر في شقوق النفس، ثم يطالع فجر الإنسان الجديد. ومن لم يظهر

أثر الليلة في نهاره، فلهذه أدرك زمنها ولم يدرك قدرها؛ لأن علامة النور ليست شدة الوهج في لحظة نزوله، بل الطريق الذي يكشفه بعد ذلك.

ومن هنا تبدأ رحلتنا: من السؤال الذي تهز به السورة حدود إدراكنا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؛ لا لنحاصر سرها في تعريف، بل لنفتح قلوبنا على دهشتها، ونفهم كيف يمكن للسماء أن تهب الأرض ليلة تتجاوز ألف شهر، وكيف يستطيع القرآن أن يمنح الزمن قيمته، وكيف يمكن للإنسان — مهما أثقلته أيامه الماضية — أن يقف في ليلة واحدة على عتبة مصير جديد.

الفصل الأول

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

حين يبدأ التحول من السماء

تبدأ سورة القدر من أعلى؛ من حيث تبدأ كل نهضة حقيقية للإنسان، وكل ولادة صادقة للمعنى، وكل انتقال من ظلمات التيه إلى نور الطريق: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾. فلا تبدأ السورة بالإنسان وهو يبحث، ولا بالعقل وهو يستدل، ولا بالأرض وهي تضطرب بأسئلتها، وإنما تبدأ بالله سبحانه وهو ينزل كلامه رحمةً وهدايةً وبياناً؛ وكأن أول ما ينبغي أن يستقر في وعي الإنسان أن الخلاص لم يكن صناعةً أرضية خالصة، وأن البشرية لم تهتد إلى حقيقتها بحض ذكائها، ولم تشق طريقها إلى الله بقوة فكرها وحده، بل تفضل الله عليها بأن خاطبها، وأنزل إليها كتاباً يجب عن الأسئلة التي تعجز التجربة البشرية عن بلوغ يقينها: من أين جئنا؟ ولماذا خُلِقنا؟ وإلى أين نمضي؟ وما الخير؟

وما الشر؟ وكيف تستقيم هذه الرحلة القصيرة بين ميلاد لا نختاره
وموت لا نستأذن في مجيئه؟

إنها آية قصيرة، ولكنها تهدم وهم الاستغناء الإنساني من أساسه؛
فالإنسان يستطيع أن يكتشف خصائص المادة، وأن يقيس حركة
النجوم، وأن يشق الجبال، وأن يغوص في أعماق البحار، ولكنه لا
يستطيع بعقله المجرد أن يعرف مراد الله منه، ولا أن يضع لنفسه خبراً
يقينياً عما وراء الموت، ولا أن يحول أهواءه المتنازعة إلى ميزان مطلق
للحق والباطل. يستطيع العقل أن يسأل، وأن يتأمل، وأن يستدل على
آثار الحكمة في الخلق، لكنه يظل مفتقراً إلى خبر السماء الذي يبين له
الغاية، ويمنحه المعيار، ويضع خطواته في سياقها الأكبر. ولذلك كان
الوحي رحمةً بالعقل لا إلغاءً له، ونوراً يهديه لا قيداً يعطله؛ فالعين لا
تفقد وظيفتها حين تستعين بالضوء، وإنما تبدأ وظيفتها الحقيقية به،
وكذلك العقل لا يفقد كرامته حين يهتدي بالوحي، بل يخرج به من
التخمين إلى البصيرة، ومن الدوران حول ذاته إلى رؤية الوجود في
ضوء خالقه.

ضمير العظمة ومهابة المصدر

جاءت الآية بضمير العظمة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، فامتلاً الافتتاح جلاً قبل أن يُذكر المنزل، لأن عظمة الرسالة تبدأ من عظمة مرسلها. وليس الضمير هنا مما يجيز وهم التعدد في حق الله سبحانه؛ تعالى الله الواحد الأحد عن ذلك علواً كبيراً، وإنما هو أسلوب عربي يفيد التعظيم والجلال، ويهيئ القلب لاستقبال حدث ليس كسائر الأحداث. فالذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض، والعليم بسر الإنسان وعلايته، والحكيم الذي أحاط بالماضي والحاضر والمآل؛ ومن ثم لم يكن القرآن رأياً بشرياً يحتمل أن يصيبه ما يصيب البشر من نقص الأفق وضيق التجربة وتقلب الهوى، بل كلاماً من الله، جاء بالحق الذي لا يتبدل بتبدل الأزمان، وبالميزان الذي تُعرض عليه تصورات الإنسان وأحكامه وأعماله.

وبين لفظة ﴿إِنَّا﴾ ولفظة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ مسافة معنوية هائلة: علو الألوهية وكملها، وضعف الأرض وحاجتها؛ ثم يأتي الإنزال فيجسر هذه المسافة بالرحمة. لم يترك الله الإنسان صريع حيرته، ولم يجعل الكون كتاباً صامتاً بلا مفتاح، ولم يكلف البشر أن يخمنوا طريق

عبادته، وإنما أرسل الرسل وأنزل الكتب، حتى بلغت الرسائل ذروتها وخاتمتها بهذا القرآن. وما أشد فقر الإنسان لو لم يتكلم الله إليه بوحيه؛ إذ كان سيعيش بين كون عظيم لا يعرف غايته، ونفس معقدة لا يفهم أعماقها، وموت يطارده ولا يعلم ما بعده، وقيم تتجاذبها المصالح والأهواء. ولكن الله أنزل الكتاب، فصار للكون تفسير، وللحياة غاية، وللألم معنى، وللخير ميزان، وللموت ما بعده، وللإنسان طريق يعود به إلى ربه.

إن الوحي في حقيقته صورة كبرى من صور العناية الإلهية؛ فالخالق الذي أوجد الإنسان لم يهمله بعد إيجاده، والذي ركب فيه العقل لم يدعه وحيداً أمام الأسئلة التي تتجاوز حدود العقل، والذي أودع فيه الشوق إلى الخلود لم يجعل هذا الشوق عبثاً يسخر منه الفناء. لقد أنزل الله كلامه لأن الإنسان مخلوق مقصود بالتكليف والهداية، لا ذرة تائهة في كون أصم، وأنزل إليه القرآن ليعرف أن فوق اضطراب الأحداث حكمة، وفوق تنازع القوى أمراً، وفوق محاكم الأرض محكمة لا تضيع عندها المظالم، وفوق انكسارات الطريق رباً يسمع ويرى ويحبر ويهدي.

الضمير الذي عرفه القلب قبل أن يُذكر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، ولم يقل في هذه السورة: إنا أنزلنا القرآن؛ فجاء الضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائداً إلى القرآن مع أنه لم يُذكر باسمه في الآيات السابقة، إذ لا آيات قبلها أصلاً داخل السورة. وهذا من جلال حضوره وشهرته؛ فهو أجل من أن يلتبس، وأظهر في وجدان المؤمن من أن يحتاج في هذا المقام إلى تعريف. كأن السورة تقول: أنزلنا ذلك الكتاب المعروف الذي إذا أطلق ذكر التنزيل اتجهت القلوب إليه، والذي لا يليق بلبلة القدر هذا التعظيم إلا لأنه نزل فيها. إن الأشياء الصغيرة تحتاج إلى كثرة التعريف، أما الحقائق الكبرى فقد يبلغ حضورها أن يدل عليها الضمير وحده. وحين يقول الله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، يتحرك القرآن في ذاكرة المؤمن كله: فاتحته التي تعلمه كيف يناجي ربه، وقصصه التي تكشف سنن التاريخ، وأحكامه التي تضبط حركة الحياة، ومواعظه التي توقظ القلب، ومشاهده الأخروية التي تنزع عن الدنيا وهم الخلود، ووعد الذي يفتح للبتي نوافذ الرجاء، ووعيده الذي يكسر غطرسة الظالم، وآياته التي تمسك بالإنسان كلها كاد يسقط في هاوية نفسه.

وهذا الحضور المضمّر للقرآن يكشف منزلته في البناء الإيماني: إنه ليس كتاباً يقع في هامش الحياة، ولا زينةً لفظيةً تُفتتح بها المناسبات، ولا نصّاً يُزار في المواسم ثم يُعاد إلى الرفوف، بل هو الحقيقة المركزية التي يُفترض أن تكون حاضرةً حتى إذا أشار إليها الضمير عرفها القلب. فهل بلغ القرآن في حياتنا هذه المنزلة؟ هل إذا قيل: الكتاب، اتجه وعينا إليه قبل غيره؟ وهل صار مرجعاً لأفكارنا وموازيننا، أم بقي معظماً في الأقوال مهمشاً عند صناعة القرارات؟ إن أخطر صور الهجر ليست أن يُترك القرآن فلا يُقرأ، بل أن يُقرأ دون أن يُمنح حق القيادة؛ أن تُحسن الألسنة ترتيله بينما تحتكم العقول إلى موازين تخالفه، وأن تزين به الجدران بينما تُبنى الحياة بعيداً عن هديه.

لقد عرف الجيل الأول قدر القرآن لأنه تلقاه بوصفه خطاباً حاضراً وتكليفاً مباشراً، لا تراثاً لغوياً يثير الإعجاب فقط. كانت الآية إذا نزلت نقلتهم من حال إلى حال، وأعادت ترتيب علاقاتهم وأموالهم ومخاوفهم وولاءاتهم؛ لأنهم لم يسألوا: ماذا تقول الآية؟ فحسب، بل سألوا كذلك: ماذا تريد منا الآن؟ ولهذا صنع القرآن بهم ما لم تصنعه الكتب بالبشر عادةً، فلم يضيف إلى معلوماتهم معرفةً

جديدة فحسب، بل أنشأ منهم أمةً، وانتزعهم من أسر القبيلة والشهوة والوثن، وربطهم بالله، ثم دفعهم إلى العالم يحملون ميزان العدل وكلمة التوحيد.

الإِنزال: حركة النور نحو الإنسان

اختار التعبير القرآني لفظ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، والإِنزال حركة من علو إلى سفلى، وفي هذا ما يملأ النفس بإدراك رفعة مصدر القرآن، ويصور الوحي نوراً يهبط إلى الأرض التي أثقلتها الظلمات. وليس المقصود علواً حسياً ندرك كلفيته أو نحيط بحقيقته، فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وإنما تتلقى اللفظ كما جاء، مؤمنين بجلال الله ومنزهين له عن مشابهة خلقه، مستبصرين بما يحمله الإِنزال من معنى التكريم: أن يأتي الهدى من عند الله إلى الإنسان، وأن تتصل الأرض بأمر السماء، وأن تدخل كلمات الله إلى واقع البشر فتغيره.

والإِنزال في ذاته رحمة؛ لأن الإنسان لم يصعد ليظفر بالقرآن، ولم ينتزعه بقوته، وإنما جاءه فضلاً من الله. وهذا يعلم المؤمن أن الهداية ليست ثمرة ذكائه وحده، ولا شهادةً باستحقاقه الذاتي، بل منة

تستوجب الشكر والخوف من السلب. كم من عقل حاد قرأ القرآن فلم ير فيه إلا ألفاظاً، وكم من قلب بسيط أقبل عليه بصدق فانفتحت له منه أبواب حياة؛ لأن النور موجود، لكن الانتفاع به يحتاج إلى عين لا تعتمد الإغماض، وقلب لا يستكبر على الحق.

وحين نقول إن القرآن نزل، فإننا لا نصف حادثةً تاريخيةً انتهت، بل نستحضر حركة متجددة في حياة كل من يتلقاه. فالقرآن قد نزل مرةً من عند الله، لكنه يظل ينزل بمعانيه على القلوب كلما قرأته قراءة استقبال لا قراءة اعتياد؛ فقد تمر بالآية أعواماً ثم تأتي ساعة يفتح الله لك فيها من معناها ما يجعلك تشعر أنك تسمعها أول مرة، لا لأن كلماتها تغيرت، بل لأن قلبك أصبح مهياً لما لم يكن مهياً له من قبل. إن النص ثابت، ولكن الإنسان يتحرك، وكلما عاد إليه بحاجات جديدة وتجارب أعمق وجد أن القرآن كان ينتظره عند هذه المنعطفات كلها.

كم من آية كانت تمر على المرء هادئةً حتى مسته محنة، فإذا بها تتحول إلى يد تمسكه من السقوط؛ وكم من وعد قرآني كان يقرأه بعينه ثم قرأه يوماً بجرحه، فعرف أن بين قراءة اللغة وقراءة الحاجة مسافةً

لا يقطعها إلا الألم؛ وكم من إنسان ظن أنه يعرف قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، حتى ضاقت به الأسباب، فانكشفت له الآية وطناً
داخلياً يقيم فيه إلى أن يجيء الفرج. وهكذا يظل القرآن جديداً؛ لأن
ينابيع معانيه لا تنفد، ولأن كل مرحلة من مراحل العمر تملك
أسئلتها التي تجد في الكتاب هداها.

من إنزال القرآن إلى إنقاذ الإنسان

لم ينزل القرآن ليقم في المصاحف، وإنما نزل ليقم الإنسان؛ ولم
يأت لينح اللغة ذروة بيانها فحسب، وإنما لينح الحياة ذروة معناها. إن
عظمة القرآن البيانية جزء من إعجازه، لكنها ليست حجاباً جمالياً تتوقف
عنده عن غايته؛ فالجمال القرآني يحمل حقاً، والبيان يقود إلى هداية،
والمشهد يهز القلب كي ينهض، والقصة تكشف قانوناً كي يبصر
الإنسان موضعه من التاريخ. ولهذا كان التدبر عبوراً من اللفظ إلى
المراد، ومن التلاوة إلى الاستجابة، ومن الإعجاب بالنور إلى المشي
فيه.

إن البشرية قبل القرآن لم تكن فقيرةً إلى البلاغة وحدها، بل كانت فقيرةً إلى الميزان. كان القوي يصنع الحق على مقاس قوته، وكانت العصبية تحدد قيمة الإنسان، وكانت المرأة تُورث وتُقهر، وكان الضعيف يعيش على هامش إرادة السيد، وكانت الأصنام الخارجية تستند إلى أصنام داخلية من الكبر والخوف والمصلحة. فجاء القرآن لا ليبدل أسماء المعبودات فحسب، بل ليحرر الضمير من العبوديات كلها، ويعلن أن الإنسان عبد لله وحده، وأن الناس من أصل واحد، وأن أكرمهم عند الله أثقاهم، وأن المال أمانة، والقوة ابتلاء، والحكم مسؤولية، والدنيا مر، والآخرة دار القرار.

وهنا تظهر الصلة العميقة بين القرآن والقدر؛ فقد نزل الكتاب في ليلة القدر ليعيد صياغة قدر الإنسان. لم يكن نزوله حدثاً في تاريخ العرب وحدهم، بل لحظةً فاصلةً في تاريخ الوعي البشري؛ إذ نقل الإنسان من عبادة الأشياء إلى عبادة خالقها، ومن تقديس الآباء إلى مساءلة الموروث بميزان الحق، ومن أسر اللحظة الأرضية إلى أفق الآخرة، ومن الاعتقاد بأن الأحداث سائبة إلى اليقين بأنها تجري بعلم الله وحكمته. ومنذ تلك الليلة لم يعد العالم بعدها كما كان قبلها، حتى

الذين لم يؤمنوا بالقرآن عاشوا في عالم مسته آثاره، وغيّرت رسالته مساراته ومعاييره وأسئلته.

وهذا شأن الوحي حين يدخل حياة الفرد أيضاً: لا يضيف إليها جانباً تعبدياً محدوداً، بل يعيد بناءها من المركز. يغير تصور الإنسان عن نفسه، فيدرك أنه عبد مكرم لا إله مستقل ولا حيوان مهمّل؛ ويغير تصوره عن النعمة، فيراها أمانة تستدعي الشكر؛ وعن البلاء، فيراه ميداناً للصبر والتكوين؛ وعن الموت، فيراه انتقالاً لا فناء؛ وعن النجاح، فلا يعود عنده كثرة ما جمع، بل سلامة ما قدم؛ وعن الخسارة، فلا تكون ضياع الدنيا وحدها، بل أن يخسر نفسه وهو يظن أنه يربح العالم.

الليل الذي اختاره الله للنور

قال تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. اختار الله الليل زمناً لبدء هذا التحول الأعظم، وفي ذلك تناسق بالغ بين سكون الكون وبقظة الروح. فالليل يستر ضجيج الأشياء، ويخفف سلطان المراثيات، ويرد الإنسان من التشتت في الخارج إلى الإصغاء في الداخل. في النهار

تتكاثر الوجوه والأصوات والمطالب، أما الليل فيجرد الإنسان من كثير من أفعته، ويضعه أمام نفسه في لحظة لا يجد فيها ما يهرب إليه إلا النوم أو الحقيقة.

وليس الليل في التصور القرآني موطن غفلة فحسب، بل محراب تكوين. فيه أسري بالنبي ﷺ، وفيه كان يقوم حتى تنفطر قدماه، وفيه تتجافى جنوب المؤمنين عن المضاجع، وفي أسحاره يستغفر الصادقون، وفي جوفه يجد المتجددون فسحة لا تمنحها ساعات النهار. إن الليل لا يصنع القرب بذاته، لكنه يهيئ له فضاءً من السكون؛ فإذا دخل عليه القلب حاضرًا اتسعت له منافذ المناجاة، وإذا دخله غافلًا لم يكن له منه إلا انقضاء الساعات.

وقد نزل القرآن في الليل لأن النور يدرك في الظلمة إدراكًا أوضح؛ فكأن المشهد كله استعارة كونية لحال البشرية: ليل كثيف من الجاهلية يحيط بالأرض، ثم ينزل القرآن فلا يكتفي بأن يبدد الظلمة، بل يحول الليلة ذاتها إلى ليلة قدر. وهنا دقة بديعة: لم يلغ النور وجود الليل، بل جعله وعاءً للبركة؛ وكذلك الوحي لا يلغي آلام الحياة ولا يحول الدنيا إلى جنة خالية من الامتحان، لكنه يمنح الظلمات معنى

وطريقاً ومخرجاً. قد يبقى المريض، ولكن القرآن يعيد تشكيل موقف المريض؛ وقد يستمر الفقد، لكنه يحفظ القلب من السقوط في العدم؛ وقد يطول الظلم، لكنه يمنع المظلوم من الاعتقاد أن الكون بلا عدالة. إن الوحي لا يعد الإنسان بحياة لا ليل فيها، بل يمنحه نوراً يمشي به في الليل.

كم من ليلة شخصية يمر بها الإنسان: ليلة الحيرة حين تتساوى الطرق في عينيه، وليلة الفقد حين يصير البيت أوسع من احتماله، وليلة الخوف حين يبدو المستقبل باباً مغلقاً، وليلة الذنب حين يشعر أن المسافة بينه وبين الطهارة بعيدة، وليلة الظلم حين يرى القوة متكئة على قوتها والحق وحيداً. وفي كل هذه الليالي يأتي القرآن لا لينكر عليه ألمه، بل ليضع الألم في خريطة أكبر؛ يخبره أن يوسف خرج من الحب والسجن إلى التمكين، وأن يونس نادى في الظلمات فاستُجيب له، وأن موسى وقف أمام البحر وخلفه فرعون ثم انشق المستحيل بأمر الله، وأن محمداً ﷺ خرج من مكة مستضعفاً ثم عاد إليها فاتحاً رحيماً. فالقرآن لا يزين الظلمة، بل يكشف أنها ليست نهاية الطريق.

ليلة القدر: قيمة الزمن بما يحمله

أضيفت الليلة إلى القدر، فازدحمت الإضافة بدلالات الجلال والشرف والتقدير. فهي ليلة عظيمة القدر في ذاتها، وعظيمة القدر بما نزل فيها، ومن قامها إيماناً واحتساباً كان له عند الله قدر؛ وهي ليلة نتصل فيها المقادير بأمر الله وتديره، كما سيأتي بيانه في موضعه. وهذا التعدد في ظلال الكلمة لا يشتت معناها، بل يزيد ثراءً، كالجوهرة كلما تحركت في الضوء أظهرت وجهاً جديداً من وجوهها.

والقدر ضد التفاهة والضياع؛ فكأن السورة تنتشل الإنسان من الزمن المستهلك إلى الزمن ذي القيمة. ليست كل ساعة يعيشها المرء حياةً بالمعنى الكامل؛ فقد يتحرك جسده بينما قلبه معطل، وقد تمتلئ أيامه بالأعمال وهي فارغة من الغاية، وقد ينجز كثيراً مما لا يستحق أن ينفق فيه عمره. إن طول البقاء لا يساوي جودة الحياة، وكثرة الانشغال لا تعني عظمة الرسالة؛ وقد جاء القرآن ليعلم الإنسان أن يسأل قبل كل سعي: ما قدر هذا الأمر عند الله؟ وما أثره في مصيري؟ وهل يستحق أن أقطع له جزءاً من عمري الذي لن يعود؟

إن المأساة الكبرى ليست أن يكون العمر قصيراً، فالأعمار كلها قصيرة إذا قيسَت بالأبد، وإنما أن يكون العمر بلا قدر؛ أن يتسرب في انحصومات الصغيرة، والمنافسات الفارغة، واسترضاء الناس، وملاحقة صور النجاح التي لا تُغني عن الله شيئاً. وليلة القدر توظف في الإنسان حس القيمة، فتقول له إن دقيقةً توضع في موضعها قد تفوق أعواماً وُضعت في غير موضعها، وإن سجدةً صادقةً قد تعيد بناء قلب هدمته الغفلة، وإن دمعةً من خشية الله قد تغسل في باطن الإنسان غبار سنوات.

وحين يعي المؤمن هذا المعنى، لا يعود سؤاله: كم بقي من العمر؟ بل: كيف أمنح ما بقي منه قدراً؟ فقد لا يستطيع أن يسترد ما مضى، لكنه يستطيع أن يغير قيمة ما سيأتي؛ ولا يملك أن يحو من سجل الزمن أيام الغفلة، لكنه يملك بتوبة صادقة أن يبدل اتجاه الرحلة كلها. إن الله الذي جعل ليلةً واحدةً خيراً من ألف شهر قادر على أن يبارك في بقية العمر حتى تتسع لما لم تتسع له سنون طويلة؛ لكن البركة لا تُنال بالأمان، وإنما بصدق الوجهة، واستجماع القلب، ووضع الجهد حيث يحبه الله.

القرآن هو الذي منح الليلة قدرها

أول ما ذكرته السورة عن ليلة القدر أن القرآن أنزل فيها، قبل أن تذكر خيريتها، وقبل تنزل الملائكة، وقبل السلام، وهذا الترتيب يبين أن سر الليلة الأول هو كلام الله. لم تعظم الليلة لأنها ليلة فحسب، ولا لأن موقعها من الشهر يمنحها القدر مجرداً، وإنما عظمت باصطفاء الله لها وإنزال القرآن فيها. فالأزمة والأمكنة والأشخاص ترتفع بقدر اتصالها بالله وبأمره؛ والإنسان لا يعظم بما يملك من مظاهر، بل بمقدار ما يحمل من الحق وما يحققه من عبودية.

وهذا يقلب موازين القيمة البشرية التي كثيراً ما تمنح القدر للثروة والمنصب والشهرة، ولو كان صاحبها خواءً من الداخل. السورة تعلمنا أن القدر الحقيقي ينزل من عند الله، ولا يصنعه تصفيق الناس؛ فقد يكون عبد مجهول في الأرض معروفاً في السماء، وقد يكون إنسان تردد باسمه المناير والشاشات ولا وزن له في ميزان الحق. وقد تكون غرفة صغيرة يقرأ فيها مؤمن القرآن أعظم في حقيقتها من قاعة نفمة تضج بالباطل؛ لأن قيمة المكان ليست في سعته وزخرفته، بل فيما يقع فيه من طاعة ومعنى.

إذا كان القرآن قد رفع قدر الليلة، فهو قادر بإذن الله أن يرفع قدر القلب الذي يسكنه، والبيت الذي يتلى فيه، والعمر الذي يُدار بهديه، والأمة التي تجعله مرجعاً لها. وليس المقصود سكن الحروف في الذاكرة وحدها، على فضل الحفظ وعظيم منزلته، بل سكن الهداية في الإرادة، حتى يصبح القرآن بصيرةً ترى بها النفس، وميزاناً تحكم به أهواءها، وقوةً تردعها حين تخرف، وسلوى تحملها حين تنكسر.

إن القلب الذي يدخله القرآن حقاً لا يبقى كما كان؛ لأن كلام الله لا يجاور الباطل في الداخل مجاورةً باردة، بل يبدأ بكشفه ومقاومته. يكشف للإنسان كبريائه الذي كان يسميه كرامة، وجبته الذي كان يسميه حكمة، وطمعه الذي كان يسميه طموحاً، وتعلقه بالدنيا الذي كان يسميه واقعية. وهذا الكشف قد يكون مؤلماً؛ لأن النور حين يدخل غرفةً مهملة لا يصنع الغبار، وإنما يظهره، والقرآن حين يكشف أمراض النفس لا يضعها فيها، بل يفضح ما كانت العتمة تستره ليبدأ التطهير.

ليلة الأمة الأولى

كانت ليلة القدر ليلة ميلاد الأمة من جهة المعنى، وإن لم تكن الأمة قد ظهرت يومئذ في صورتها الاجتماعية والتاريخية الكاملة. ففيها بدأ نزول الكتاب الذي سيصنع تصورها، ويحدد قبلتها، ويرسم قيمها، ويبيّن صلتها بالله وبالناس وبالعالم. كانت مكة نائمةً تحت ثقل عاداتها، ولم تكن تدري أن كلمات بدأت تنزل ستغير تاريخها وتخرج من شعابها أمة تحمل آخر رسالات السماء.

وهذه من مفارقات التاريخ الكبرى: أن التحولات العظيمة تبدأ غالباً في صمت لا يسمعه المعاصرون. حين كان الوحي ينزل أول مرة لم تكن إمبراطوريات الأرض تحسب لذلك حساباً؛ كانت القوى الكبرى منشغلةً بصراعاتها وجيوشها وحدودها، بينما كان الحدث الذي سيعيد ترتيب خريطة الروح والتاريخ يبدأ بعيداً عن قصورها، في بيئة لا تراها جديرةً بالاهتمام. وهكذا يعلننا الله ألا نزن البدايات بضجيجها، فقد يبدأ قدر عظيم في قلب واحد، وفي غرفة صغيرة، وفي فكرة لا يلتفت إليها أحد، ثم تتسع دوائرها حتى تغير أجيالاً.

لقد بدأ الإسلام بكلمة نزلت على قلب رجل واحد، لكن هذا القلب كان صادقاً في حملها، فصار أوسع من عالم كامل. لم تكن القوة يومئذ في كثرة العدد ولا وفرة المال، بل في نقاء المصدر وصدق المتلقي؛ ولذلك استطاعت الكلمة أن تقف أمام السيف، وأن تبني من المستضعفين حملة رسالة، وأن تحول جماعة مطاردة إلى أمة ذات حضارة وشهود. ليست هذه دعوة إلى إهمال أسباب القوة المادية، فالقرآن نفسه يأمر بالإعداد، وإنما هي تصحيح لأصل القوة: فالمادة بلا معنى قد تصنع بطشاً ولا تصنع رسالة، والعدد بلا عقيدة قد يصنع حشداً ولا يصنع أمة.

إن الأمة لا تستعيد قدرها بمجرد الاحتفاء بليلة القدر، بل باستعادة الكتاب الذي أعطها القدر. وما دام القرآن يُتلى في شعائرها ثم يُعزل عن أخلاقها وعدلها وعمرانها، فسيظل احتفالها بالليلة ناقصاً؛ لأن الوفاء لليلة يكون بالوفاء لما نزل فيها. لا يكفي أن نبكي عند سماع الآيات ثم نقسو في المعاملات، ولا أن نعظم المصحف ثم نخون الميزان الذي جاء به، ولا أن نرفع شعار القرآن بينما تحكنا العصبية

والمصالح. إن القرآن يريد أمةً يكون عدلها تفسيراً له، ورحمتها أثراً من آثاره، وصدقها شاهداً على صدق انتسابها إليه.

نصيب الإنسان من الإنزال

ليس السؤال بعد قراءة الآية: متى نزل القرآن فقط؟ بل: هل نزل القرآن إلى موضع القرار فينا؟ فقد يصل إلى الأذن ولا يبلغ القلب، ويبلغ القلب تأثراً ولا يبلغ الإرادة فعلاً، ويبلغ الإرادة في لحظة ثم تهزمه العادة بعد حين. والإنزال الذي يغير الإنسان هو أن ينتقل القرآن من محيط حياته إلى مركزها، ومن التبرك بألفاظه إلى الاستسلام لهديه، ومن سؤال: كيف أوافق بينه وبين هواي؟ إلى سؤال: كيف أصحح هواي ليوافق الحق؟

إن لكل إنسان ليلته التي ينتظر فيها نزول المعنى؛ لحظةً يعترف فيها بعجزه، ويصمت ضجيج الأنا، ويتهيأ القلب لأن يسمع. وربما كانت أعظم الحجب بيننا وبين القرآن أننا نأتيه ممتلئين بأنفسنا، نريد منه أن يؤكد ما قررناه سلفاً، وأن يمنح اختياراتنا غطاءً مقدساً، لا أن يحاكمنا ويغيرنا. أما من جاءه فقيراً إلى الهداية، خائفاً من ضلال نفسه،

مستعداً لأن يتخلى عن رأيه حين يظهر له الحق، فقد فتح في قلبه موضعاً لنزول النور.

لا بد، إذن، من خلوة صادقة مع القرآن لا يكون مقصدها إنهاء الورد فقط، بل بدء التحول. يقرأ الإنسان الآية ثم يتوقف أمامها ويسأل نفسه: أي وهم تهدمه في؟ وأي قيمة تبنيها؟ وأي عادة تطلب مني أن أتركها؟ وأي حق كنت أتهرب منه فأعادتني إليه؟ عندئذ تتحول التلاوة من مرور العين على السطور إلى مرور النور في مجاهل النفس، ويصبح القرآن حدثاً يقع الآن، لا خبراً عن حدث وقع قديماً.

عندما ينزل النور على جراحنا

من رحمة القرآن أنه لم ينزل على بشر بلا ضعف، بل نزل وهو يعلم تركيب الإنسان كله: خوفه ورجاءه، شهوته وضعفه، نسيانه وعجلته، قدرته على الصعود وقابليته للسقوط. ولذلك لا يخاطب صورةً مثالية متخيلة، وإنما يخاطب الإنسان الواقعي ليأخذ بيده نحو كماله الممكن.

يوقظه إذا غفل، ويعاتبه إذا أخطأ، ويفتح له باب التوبة إذا رجع، ولا يحبسّه في تعريف واحد صنعته زلته الماضية.

وهذا من أعظم ما يحتاجه القلب في ليلة القدر: ألا يأتي إلى الله متوهماً أن كثرة أخطائه جعلت عودته مستحيلة، فإن الذي أنزل القرآن هدايةً يعلم ضعف من أنزله إليهم، وقد ملأ كتابه بندايات التوبة والرجاء. لكن الرجاء القرآني ليس مخدراً يريح الضمير من غير تغيير، بل قوة تدفعه إلى النهوض؛ فالله يغفر الذنب، لكنه يدعو صاحبه إلى تركه، ويحوّ الماضي، لكنه يفتح أمامه مستقبل المسؤولية.

حين ينزل القرآن على الجرح لا يعد الإنسان بأن يحو ذاكرته، بل يعلمه كيف يحول الألم إلى بصيرة؛ ولا يرد إليه كل ما فقد، لكنه يرد إليه نفسه بعد أن كادت تضيع مع المفقود؛ ولا يفسر له كل سر في القضاء، لكنه يمنحه من الثقة بالله ما يجعله قادراً على السير دون أن يفهم كل شيء. إن الهداية ليست أن تُكشف للإنسان تفاصيل قدره كلها، بل أن يعرف ربه معرفةً تكفيه ليطمئن إلى ما غاب عنه.

بداية الرحلة

هكذا تضعنا الآية الأولى أمام الحقيقة التي ستبني عليها السورة كلها: أن قدر الليلة جاء من نزول القرآن، وأن قدر الإنسان يأتي من صلته به، وأن الظلمة لا تكون مانعاً من النور، بل قد تكون المسرح الذي يظهر فيه أثره، وأن السماء لم تقطع صلتها بالأرض، بل أنزل الله إليها كلماته لتعرف طريقها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ليست مجرد إعلان عن زمن النزول، بل إعلان عن مصدر النور، وعن كرامة الإنسان الذي خاطب به، وعن قابلية التاريخ للتحول، وعن سر القيمة في الأعمار والأعمال. إنها تقول لكل قلب أرهقته ليلته: ليس الليل خاتمة الحكاية؛ فقد اختار الله ليلة لينزل فيها أعظم أنواره. وتقول لكل إنسان نادى على ما ضاع: ليست العبرة بكثرة الأيام التي مضت، بل بما يمكن أن ينزل في قلبك من هداية فيما بقي. وتقول لكل أمة تبحث عن قدرها في مواضع شتى: إن الكتاب الذي منح الليلة قدرها هو وحده القادر — إذا أحسن فهمه وصدق العمل به — أن يعيد إليك قدرك.

ومن هذا التعريف المهيّب بالإِزال والليّلة، تنتقل السورة بنا إلى سؤال يوقظ الدهشة ويكشف قصور المعرفة البشرية أمام عظمة العطاء:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

فليست كل حقيقة يكفي أن تسمع اسمها حتى تدرك قدرها؛ وبعض أبواب المعنى لا تُفتح بالمعلومة وحدها، بل بقلب يعرف كيف يندهش.

الفصل الثاني

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾

حين يُرِيّ القرآنُ القلبَ على الدهشة

بعد أن أعلنت الآية الأولى الحدث الأعظم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، لم تنتقل السورة مباشرةً إلى بيان فضل الليلة، وإنما أقامت بين الإعلان والتفسير سؤالاً مهيباً: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾. وهو سؤال لا ينتظر من المخاطب جواباً؛ لأن العلم بحقيقة هذه الليلة لا يُستخرج ابتداءً من التجربة البشرية، ولا يُقاس بالموازين المألوفة، وإنما أراد به القرآن أن يوقف النفس على عتبة السر، وأن يرفعها من سماع الاسم إلى استشعار الجلال، وأن يخلخل فيها عادة المرور السريع على الكلمات حتى تستيقظ أمام حقيقة أكبر من أن تُناول ببرودة المعرفة المجردة.

فكأن السورة تقول: لقد سمعت اسم ليلة القدر، ولكن هل عرفت قدر ما سمعت؟ وهل يستطيع وعيك المحدود، لولا أن يعلمك

الله، أن يبلغ حقيقة ليلة اصطفاها الله لإتزال كتابه، وجعلها خيراً من ألف شهر، وأرسل فيها الملائكة والروح، وأفاض عليها السلام حتى مطلع الفجر؟ إن معرفة الاسم شيء، وإدراك المسمى شيء آخر؛ وكم من حقائق عظيمة أصبحت مألوفةً على الألسنة حتى فقدت في النفوس هيبتها، لا لأن عظمتها نقصت، بل لأن القلوب اعتادت ألفاظها ولم تعد تقف عند معانيها.

إن الإنسان قد يردد الكلمات المقدسة حتى تصبح جزءاً من عاداته الصوتية، بينما تبقى بعيدةً عن مركز شعوره. يقول: القرآن، والآخرة، والجنة، والموت، وليلة القدر، ثم يمضي وكأن هذه الكلمات لا تحمل وراءها عوالم تهز الوجود. ومن هنا تأتي الأسئلة القرآنية لا لتضيف معلومة فحسب، بل لتكسر قشرة الألفة التي حجب القلب عن الدهشة: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، و﴿الْقَارِعَةُ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، و﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾. فحين تعجز الألفة عن إيقاظ النفس، يأتي السؤال ليعيد إلى الحقيقة مهابتها، ويقول للإنسان: تمهل؛ فأنت تقف أمام أمر ليس كالأمور.

السؤال الذي لا يطلب جواباً بل يصنع استعداداً

السؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ليس امتحاناً لمعلومات النبي ﷺ، وإنما تعظيم لليلة، وبيان أن حقيقتها فوق ما يستقل العقل بإدراكه لولا خبر الله. وفي هذا تربية دقيقة على حدود المعرفة؛ فليس العقل الإنساني مقياساً لكل موجود، وليس ما عجز عن الإحاطة به معدوماً، وليس الغيب فراغاً مجرد أن الحواس لا تصل إليه. إن الإنسان يعرف من الوجود بقدر ما أذن الله له أن يعرف، ثم يبقى وراء معرفته أفق واسع لا تحيط به أدواته.

وقد أصيب العقل الحديث في بعض أطواره بوهم خطير حين ظن أن ما لا يخضع للمختبر لا يستحق أن يدخل دائرة اليقين، مع أن المختبر نفسه لا يجيب عن كل أسئلة الوجود؛ فهو يستطيع أن يحلل مادة الدمع، لكنه لا يقيس الحزن الذي أخرجه، ويستطيع أن يرصد حركة الدماغ، لكنه لا يزن معنى الحب والوفاء والندم، ويستطيع أن يصف مراحل الموت الجسدية، لكنه لا يملك من ذاته خبراً يقينياً عما بعد الموت. إن للعلم التجريبي مجاله الجليل الذي ينبغي احترامه، لكن

تحويله إلى أداة وحيدة لمعرفة كل شيء ليس علماً، بل فلسفة تتجاوز حدود الأداة التي تستند إليها.

ويأتي الوحي ليملاً هذا الفراغ بخبر الصادق سبحانه، لا ليصادم العقل السليم، بل ليخبره بما لا سبيل له إلى معرفته وحده. فالملائكة، وتنزل الروح، وتقدير الأمور، وفضل الليلة، كلها حقائق لا تُلْتَقَط بالحواس، لكنها ثبتت بخبر الله الذي خلق الحس والعقل والغيب والشهادة. والمؤمن لا يلغي عقله عندما يؤمن بها؛ بل يستخدم عقله في معرفة صدق الوحي، ثم يتلقى عن الوحي ما يتجاوز استقلال العقل بإدراكه، كما يثق الإنسان بعينه في مجال الضوء، لكنه لا يطالبهما بسماع الأصوات.

إن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يعيد العقل إلى مقامه الكريم دون أن يسمح له بادعاء الألوهية المعرفية؛ فهو عقل يبحث ويتدبر ويفهم ويستنبط، لكنه يظل عبداً لا يحيط بعلم الله، ويقول عند حدود ما أُخبر به: آمنا وصدقنا. وهذه ليست هزيمة للعقل، بل نجاته من الغرور؛ لأن أول شروط المعرفة أن يعرف العارف حدود أدواته،

وأخطر الجهل أن يتوهم الإنسان أنه أدرك الوجود كله لمجرد أنه اكتشف بعض قوانينه.

بين أن تعرف وأن تدرك

اختارت الآية لفظ ﴿أَدْرَاكَ﴾، والإدراك أعمق من مجرد وصول الخبر؛ ففيه معنى بلوغ الشيء والمحاق بحقيقته. وقد يعرف الإنسان معلومةً دون أن تدرك روحه وزنها، كما يعرف جميع الناس أن العمر ينقضي، ثم يعيش أكثرهم كما لو أن الوقت لا ينفد؛ ويعرفون أن الموت آتٍ، لكن معرفتهم تبقى معلقةً خارج القرار، فلا تُصلح خصومةً، ولا ترد مظلمةً، ولا توقف تسويقاً. إنهم يعرفون الموت، لكنهم لم يدركوه إدراكاً يغير الحياة.

وكذلك ليلة القدر: قد يعرف المرء موعد التماسها، ويحفظ فضائلها وأحاديثها، ويعدد علاماتها، ثم لا يدرك حقيقتها؛ لأن الإدراك الذي تريده السورة ليس تراكم معلومات حول الليلة، بل يقظة روحية تجعل الإنسان يدخلها وهو يشعر أنه يقف أمام فرصة لا تشبه غيرها. فمن أدرك قدرها لم يجعل قيامه فيها حركة جسد غائب القلب، ولم

يحول دعاءه إلى ألفاظ مسرعة، ولم ينشغل طوالها بالسؤال عن علاماتها حتى تفوته العبادة التي جعلت العلامات لأجل حثه عليها.

إن المعرفة الحقيقية تُقاس بما تُحدثه؛ فإذا عرفت أن هذه الليلة خير من ألف شهر ثم بقي حرصك عليها كحرصك على ليلة عادية، فثمة فجوة بين المعلومة والإدراك. وإذا علمت أن الملائكة تنزل فيها ثم لم يتهذب حضورك، ولم تخجل من أن تستقبل هذا الموسم بقلب ممتلئ بالضغائن، فالمعنى لم يصل بعد إلى موضعه العميق. العلم الذي لا يغير شيئاً قد يكون حجةً على صاحبه؛ أما العلم الذي ينزل من الرأس إلى القلب، ثم يتحول في الجوارح موقفاً، فهو الذي يفتح للإنسان أبواب التحول.

الدهشة عبادة القلب أمام العظمة

يربي السؤال القرآني في الإنسان فضيلة الدهشة، والدهشة هنا ليست انفعالاً سطحياً أمام الغريب، بل انفتاح القلب على العظمة حين يعجز عن اختزالها في مألوفه. إن القلب الحي لا يمر على نعم الله الكبرى كما يمر على الأشياء المستهلكة؛ يرى شروق الشمس كل يوم،

لكنه لا يسمح للتكرار أن يحجب عنه المعجزة، ويسمع القرآن مرات كثيرة، لكنه يعود إليه بقبالية الاكتشاف، ويدخل رمضان كل عام، لكنه لا يعدّه نسخةً مكررة من عام مضى، لأن المتكرر في الزمن قد يكون جديداً في المعنى إذا تجدد القلب.

وأشد ما يهدد الحياة الروحية أن تتحول العبادة إلى عادة مغلقة؛ يؤديها الإنسان بإتقان ظاهري، لكنه لا يعود يشعر أنه يناجي رب العالمين، ولا أن السجود اقتراب، ولا أن القرآن خطاب، ولا أن الدعاء وقوف على باب من بيده ملكوت كل شيء.. وحين تغيب الدهشة يبقى الشكل وتنسحب الروح، ويصبح المقدس مألوفاً إلى الحد الذي لا يحرك شيئاً. ولذلك يسأل القرآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، ليوظ الحس الذي تبدل، ويعيد إلى الليلة جلالها في النفس.

إن الطفل يرى العالم بدهشة لأنه يراه للمرة الأولى، أما المؤمن فيراه بدهشة أعمق لأنه يرى وراءه فعل الله وحكمته. ليست الدهشة الإيمانية جهلاً بالأسباب، بل نفاذاً من الأسباب إلى مسببها؛ فكلما ازداد الإنسان معرفةً بدقة الخلق، ازداد تعجباً من الحكمة التي أودعت فيه هذا النظام. وهو حين يقرأ القرآن لا يتعامل مع البلاغة

بوصفها صنعة لغوية فقط، بل ينفذ من جمال النظم إلى جلال المتكلم سبحانه، ومن انتظام المعنى إلى الرحمة التي اقتربت منه في صورة كلمات يستطيع لسانه أن يتلوها.

وما أرهف أن يقف الإنسان في ليلة القدر مستشعراً أن هذا القرآن الذي بين يديه بدأ نزوله في مثل هذه الليلة، وأن الكلمات التي يقرأها في غرفته الصغيرة هي كلام رب العالمين، وأن الله أذن لعبده الضعيف أن يتعبد بتلاوتها، وأن يسمعها بقلبه، وأن يجد في كل آية منها طريقاً إليه. إذا استيقظ هذا المعنى لم تعد التلاوة إنجازاً عددياً، بل لقاء؛ ولم يعد السؤال: كم ختمة أكملت؟ وحده كافياً، بل يصبح السؤال الأعمق: كم آية فتحت في داخلي نافذة؟ وكم حقيقة ردتني عن باطل؟ وكم نداء شعرت أنه يعنيني أنا؟

تكرار الاسم تثبيت للمهابة

ذكرت ليلة القدر باسمها في الآية الأولى، ثم أعيد الاسم كاملاً في الثانية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، ولم يقل: وما أدراك ما هي. وفي هذا الإظهار مكان الإضمار تثبيت لجلال الاسم، حتى يتردد في

السمع والقلب، ويأخذ موضعه من الوعي. فبعض الأسماء لا ينبغي اختزال حضورها بضمير، لأن تكرارها جزء من صناعة المهابة وإبراز الشرف.

ويتكرر اسم ليلة القدر مرةً ثلاثة في قوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾؛ فكأن السورة تبني في ثلاث موجات متعاقبة معنى الليلة: الأولى تربطها بإنزال القرآن، والثانية تفتح حولها سؤال التعظيم، والثالثة تكشف عن خيريتها التي تتجاوز مقاييس الزمن. إن التكرار هنا ليس إعادةً ساكنة، بل ارتقاء في التعريف؛ ففي كل مرة تنكشف طبقة جديدة من المعنى، حتى تخرج الليلة من كونها اسماً معروفاً إلى كونها أفقاً لا يستوعبه الحساب المعتاد.

وهذا يعلمنا أن تكرار الحقائق الكبرى ليس حشواً إذا كانت النفس تحتاج إلى تجدد التذكير؛ فالإنسان لا ينسى المعلومة فقط، بل قد ينسى وزنها مع بقاءها في ذاكرته. يعرف أن الله يراه، ثم تغلبه الشهوة كأنه لم يعرف؛ ويعلم أن الرزق بيد الله، ثم يهينه الخوف من الناس؛ ويحفظ أن الآخرة خير وأبقى، ثم يبيع موقفه من أجل مكسب زائل. لذلك يكرر القرآن الحقائق بأشكال متعددة، لا لأن

المعنى ناقص، بل لأن الإنسان كثير النسيان، ولأن التكرار الواعي ينقل الحقيقة من سطح الذاكرة إلى نسيج الشخصية.

القدر: الشرف والمقدار والتقدير

كلمة القدر من الكلمات التي تتسع فيها الدلالة دون أن تنفك، فهي تحمل معنى الشرف والمنزلة، وتحمل معنى التقدير والحكم، وتحمل معنى التضيق أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، وقد قيل إن الأرض تضيق في هذه الليلة بكثرة الملائكة. وهذه الظلال تتآلف في مشهد واحد: ليلة عظيمة القدر، تجري فيها الأمور بأمر الله، وتزاحم فيها ملائكة الرحمة حتى تضيق الأرض بكثرتها.

غير أن أعظم ما يواجهنا به الاسم أن لكل شيء قدراً حقيقياً عند الله، قد يختلف عن قدره في أعين الناس. فالناس يمنحون الأشياء قيمتها وفق الندرة أو الثمن أو الشهرة أو المنفعة العاجلة، أما القرآن فيعيد ترتيب سلم القيمة من أساسه. ليلة لا تملك في الظاهر شمساً مختلفة ولا قرراً آخر، لكنها عند الله خير من ألف شهر؛ وفقير خفي قد يكون أكرم من غني مشهور؛ وسجدة في جوف الليل قد تكون أثقل

من عمل تملؤه الأنظار؛ وكلمة حق لا يسمعها إلا قليل قد تبقى بعد أن تسقط خطب كان يصفق لها الآلاف.

إن الإنسان يعيش في صراع دائم بين قدر الأشياء عند الله وقدرها في عين الخلق. وقد يضيع عمره كله وهو يحاول أن يرفع قدره في الميزان الخطأ؛ يجمع ما يلفت الأبصار، ويهمل ما يطهر السريرة، ويبني صورته عند الآخرين بينما يتداعى باطنه، ويخاف سقوط مكانته الاجتماعية أكثر مما يخاف سقوطه من عين الله. ثم تأتي ليلة القدر لتسأله بصمتها المهيب: في أي ميزان تبحث عن قدرك؟ وهل تريد أن تكون معروفاً في الأرض أم مقبولا في السماء؟ وهل ترضى أن يصفق لك الناس وأنت خفيف في ميزان الحقيقة؟

ولا يعني هذا أن الشهرة أو المال أو المنصب شر في ذاته؛ فقد تكون أدوات للخير إذا استقامت النية وحسن العمل، وإنما الخطر أن تتحول من وسائل إلى مصادر للقيمة، فيظن الإنسان أن قدره يستمد من يملكه، لا مما هو عليه عند الله. فإذا فقد منصبه شعر أنه فقد ذاته، وإذا قل إعجاب الناس به اهتز وجوده، وإذا سبقه غيره في الدنيا امتلأ حسداً، لأنه ربط كرامته بالمقارنة. أما من عرف أن القدر الحقيقي

عند الله، فإنه يعمل ويتقن، لكنه لا يعبد النتيجة، ويحب القبول،
لكنه لا يبيع الحق من أجل التصفيق.

السؤال الذي يهدم وهم الإحاطة

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ تذكير للإنسان بأن وراء المعلوم سرّاً، ووراء ما
يدركه من الفضل أضعافاً لا يحيط بها. نحن نعرف عن ليلة القدر ما
أخبرنا الله به، لكننا لا نحيط بكيفية تنزل الملائكة، ولا بمقدار السلام
الذي يفيض فيها، ولا بكل ما يقضيه الله لعباده من رحمة ومغفرة.
وهذه المسافة بين المعرفة والإحاطة تحفظ للقلب خشوعه؛ لأن من
ظن أنه أحاط بالحقيقة توقف عن التلقي، أما من عرف أن كل باب
يفتحه القرآن يقوده إلى آفاق أخرى، ظل متواضعاً أمام كلام الله.

ومن آفات القراءة أن يتعامل القارئ مع النص القرآني كأنه
استنفد معناه بمجرد أن قرأ تفسيراً مختصراً له؛ فيقول في نفسه: عرفت
المقصود، ثم يغلق الباب. نعم، للآية معنى منضبط بلغة العرب وسياق
الوحي، ولا يجوز إطلاق التأمل بلا قيد حتى ينفصل عن مراد
النص، لكن المعنى الصحيح نفسه قد تتوالد منه هدايات لا تنقضي؛

فكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر حقيقة ثابتة، ثم تتفرع عنها أسئلة البركة، وقيمة الزمن، وإمكان الاستدراك، وفضل العمل الخفي، وموازين التفاضل. وكل ذلك يظل متصلاً بأصل الآية، مستضيئاً به، لا متسلطاً عليه.

إن القرآن لا تنقضي عجائبه، لا بمعنى أن كل خاطر يُنسب إليه، بل بمعنى أن اللفظ المحكم يمنح الأجيال المتعاقبة هدايات تناسب أسئلتها دون أن يفقد دلالاته الأصلية. فالناس يتغيرون، والأحوال تبدل، لكن حاجتهم إلى النور ثابتة؛ وكلما ظهرت ظلمة جديدة كشف القرآن عن وجه من الهداية كان كامناً في سعته.

لماذا أُخفيت الليلة؟

من آثار هذا السؤال المهيّب أن الإنسان يشعر أن ليلة القدر أعظم من أن تتحول إلى تاريخ محسوم يمر عليه مرور الموظف الذي يؤدي واجبه في موعد واحد. وقد دلت السنة على التماسها في العشر الأواخر، ولا سيما في أوتارها، مع ورود أحاديث وأقوال في تعيينها، لكن الحكمة الظاهرة في عدم القطع العام بليلة ثابتة لكل الأعوام أن يبقى

القلب متحفظاً، وأن تنسج العبادة، وأن يظهر صدق الطالب في طول التماسه.

فلو عُينت الليلة تعييناً لا اختلاف فيه، لربما نام الناس أكثر الشهر، ثم ازدحموا على ليلة واحدة يريدون أن يأخذوا كنزها بأقل جهد، وكأن العبادة صفقة زمنية لا رحلة تطهير. لكن الله جعل الوصول إليها محفوفاً بالطلب، لأن من عرف قدر المطلوب هان عليه امتداد الطريق. وليس الله محتاجاً إلى كثرة قيامنا، وإنما نحن الذين نحتاج إلى هذه الليالي المتتابعة لتلين قلوبنا؛ فقد لا تكسر ليلة واحدة قسوةً راكمتها شهور الغفلة، ولا تكفي دمعة عابرة لتطهير باطن أقام طويلاً في التعلق بالدنيا.

إن الإخفاء هنا نوع من العطاء؛ لأنه وسع زمن القرب. فبدل أن تكون للإنسان ليلة واحدة، صار له عشر ليال يتربح فيها النفحات، ويكرر الوقوف على الباب، ويعيد الدعاء، ويصلح في كل ليلة ما قصر فيه في سابقتها. وربما كان أعظم ما يجده العبد في هذا التماس ليس لحظة الكشف عن الليلة، بل الإنسان الجديد الذي يتكون خلال البحث عنها.

وكثير من كنوز الحياة يخفيها الله في طريق الطلب: فالعلم لا يعطي سره لمن قرأ صفحةً وملّ، والكاتب لا تمنح جمالها لمن لم يصبر على المراجعة، والتزكية لا تفتح بابها لمن أراد التخلص من عيوب عمر كامل في لحظة انفعال، والنصر لا يولد من آمنيات غير مسنودة بإعداد. إن الأشياء العظيمة تختبر صدق طالبها بطول الطريق إليها، وليلة القدر تعلم الإنسان ألا يطلب النفائس بنفس عجولة تريد الثمرة ولا تصبر على الغرس.

ليلة القدر ليست مسابقة في العلامات

ينشغل بعض الناس بعلامات ليلة القدر انشغالاً يطغى على مقصدها، فيراقبون الطقس والسماء والشمس، ويتداولون الصور والاستنتاجات، وربما جزم كل فريق بأنها كانت في ليلة مختلفة، وكأن الفوز متوقف على اكتشافها بعد انقضاءها. والعلامات الثابتة عن النبي ﷺ حق تُفهم في موضعها، لكن المقصد ليس أن تتحول الليلة إلى لغز فلكي؛ بل أن تتحول النفس فيها إلى موضع للعبادة والتوبة والذكر والدعاء.

فما جدوى أن يعرف الإنسان في الصباح أنه أدرك ليلة القدر بجسده، إذا كان قلبه غائباً طواها؟ وما قيمة أن يصور شروق الشمس، ولم يسمح لنور القرآن أن يشرق على عتماته؟ إن أهم علامة يرجوها المؤمن ليست في الأفق وحده، بل في أثر الليلة عليه: هل أصبح بعد قيامها أشد حُباً للطاعة؟ هل خفت في قلبه خصومة كانت تثقله؟ هل انكسرت فيه شهوة طالما قادتته؟ هل خرج منها بعهد جديد مع القرآن؟ ليست هذه علامات جازمة على تعيين الليلة، لكنها ثمار تدل على صدق التعرض لنفحاتها.

إن كثيراً من الناس يريدون يقين العلامة لأنهم يخافون ضياع المكافأة، أما المحب فإنه يعبد الله في الليالي كلها، سواء عرف أيها ليلة القدر أم لم يعرف؛ لأنه لا يطلب فضل ليلة منفصلاً عن طلب رب الليلة. وما أجمل أن يدخل الإنسان العشر الأواخر لا بعقلية من يؤدي الحد الأدنى لينال الأجر الأعلى، بل بقلب من وجد باباً مفتوحاً إلى الله فلا يريد أن يغادره.

من سؤال الليلة إلى سؤال الذات

تسأل الآية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، لكنها توقف في باطن المتلقي سؤالاً آخر: وما أدراك ما قدرك أنت إذا اتصلت بالقرآن؟ وما أدراك ما الذي يمكن أن تصبحه إن صدقت توبتك؟ وما أدراك أي باب قد يفتحه الله لك في ليلة ظننتها عادية؟ إن الإنسان كثيراً ما يحبس نفسه في تاريخ أخطائه، ويظن أن ماضيه تعريف نهائي له، بينما القرآن يفتح له إمكان الولادة من جديد.

ربما دخل رجل ليلة القدر وهو محمل بأعوام من الغفلة، ثم خرج منها وقد تغير اتجاه قلبه كله؛ ولم تختف ذكرياته، ولم يتبدل العالم الخارجى في لحظة، لكن المركز الذي يرى منه الحياة تبدل. وكان هذا التحول في الميزان أعظم من تغيرات مادية كثيرة؛ لأن إصلاح الاتجاه يغير معنى الطريق كله. من كان يمشي بعيداً عن الله ثم استدار إليه، فقد بدأ الوصول وإن كانت المسافة طويلة، ومن كان قريباً في الظاهر وقلبه منصرف، فقد يبدأ الضياع من الموضع الذي ظنه نجاة.

والتوبة ليست إنكاراً للماضي، بل كسراً لسلطانه على المستقبل.
هي أن يعترف الإنسان بما كان دون أن يسمح له بأن يقرر ما
سيكون؛ وأن يحمل من خطئه معرفةً تجعله أكثر تواضعاً ورحمة، لا
قيداً يمنعه من النهوض. وليلة القدر من أعظم مواسم هذه الاستدارة؛
لأن الذي جعلها خيراً من ألف شهر قادر على أن يجعل صدقاً واحداً
فيها بدايةً لعمر مختلف.

غير أن هذا الرجاء لا ينبغي أن يتحول إلى وهم ديني يطلب
التحول بلا أسباب؛ فن أراد أن يولد في ليلة جديدة فعليه أن يدفن
فيها شيئاً من إنسانه القديم: عادةً تؤذيه، أو حقداً يسكنه، أو مظلمةً
يصر عليها، أو تعلقاً يزاحم محبة الله. أما أن يريد سلام الليلة مع
الاحتفاظ بكل الحروب التي يشعلها في داخله وحوله، فذلك تناقض
لا يصنع تحولاً.

الدهشة التي ترد الإنسان إلى تواضعه

في السؤال القرآني تربية على أن الإنسان ليس مركز الكون ولا
مقياس حقائقه. لقد جعل خليفةً في الأرض، ومُنح العقل والإرادة

والتكليف، لكنه يظل مخلوقاً محاطاً بالجهل من جهات كثيرة. يبدأ حياته لا يعرف شيئاً، ويتعلم قليلاً قليلاً، ثم قد يغره ما تعلم فينسى المحيط الهائل مما لا يعلم. وتأتي ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ لترد العالم والجاهل معاً إلى مقام العبودية: إن ما أدراك به الله علم، وما حجه عنك غيب، وما عليك إلا أن تتلقى خبر ربك بالتسليم، وتستخدم ما أعطاك من عقل في التدبر والعمل.

وكلما ازداد المؤمن علماً صحيحاً، ازداد تواضعاً؛ لأنه يرى اتساع الحقيقة وضيق ما أحاط به منها. أما الغرور فغالباً ابن المعرفة الناقصة؛ يعرف الإنسان طرفاً فيتوهم أنه عرف الكل، ويحفظ رأياً فيزدري من خالفه، ويقرأ تفسيراً فيظن أن أبواب القرآن أغلقت بعد فهمه. لكن القلب الذي رباه القرآن يقول: هذا ما ظهر لي، والله أعلم براده، وقد يكون عند غيري من الصواب ما فاتني.

وليلة القدر نفسها تربي الإنسان على هذا التواضع؛ تقع أحداث عظيمة حوله وهو لا يراها: ملائكة تنزل، ورحمة تندفق، وأمور تجري بإذن الله، بينما حواسه لا تسجل إلا سكون الليل. فكم من حقيقة لا ندركها وهي أقرب إلينا مما نتصور، وكم من لطف إلهي يحيط بنا ولا

نعله، وكم من شر صرفه الله عنا فلم نشعر به لأننا لا نرى الطرق التي كان يمكن أن تأتي منها المصائب. إن حياتنا الظاهرة ليست كل حياتنا، وما نراه من التدبير ليس إلا طرفاً يسيراً من عالم واسع يحكمه الله بعلمه ورحمته.

استعادة قابلية التعجب

إن من علامات قسوة القلب أن يفقد القدرة على التعجب من النعمة؛ يأكل فلا يرى في الطعام إلا عادة، ويستيقظ فلا يشعر أن يوماً جديداً قد وُهب له، ويتلو القرآن فلا يرتجف أمام حقيقة أن كلام الله بلغ لسانه. وحين تفقد النعمة دهشتها يسهل أن تفقد شكرها؛ لأن الاعتياد يوهم الإنسان أن ما بين يديه حق مكتسب لا عطية متجددة.

وسؤال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يعالج هذا الاعتياد، فيجعل المؤمن يرى ليلة القدر كما لو أنه يسمع بها أول مرة. أي كرم هذا الذي يجعل عمل ليلة يتجاوز عمل عمر طويل؟ وأي رحمة هذه التي تفتح في نهاية رمضان باباً لمن قصر في أوله؟ وأي تكريم للإنسان أن تنزل الملائكة

إلى الأرض التي يقوم عليها، وأن تمتد الرحمة حتى يطلع الفجر؟ إن القلب إذا استحضر هذه المعاني لم يحتاج إلى من يدفعه دفعا إلى العبادة؛ فالمعرفة المشبعة بالدهشة تتحول من تلقاء نفسها إلى شوق.

وما أخرج الإنسان إلى أن يحمل هذه القابلية معه بعد رمضان؛ أن يتعجب من ستر الله رغم تقصيره، ومن عودة الفرص بعد إخفاقه، ومن بقاء أبواب التوبة مفتوحة مع طول إعراضه. إنه إذا رأى حياته بعين الاستحقاق امتلاءً سخطاً، لأن كل عطاء سيبدو أقل مما يريد؛ أما إذا رآها بعين الفضل امتلاءً شكراً، لأن أبسط النعم ستظهر له أكبر مما يستحق.

الجواب يأتي من السماء

بعد أن يقرر السؤال أن الإنسان لا يستطيع من ذاته إدراك قدر الليلة، لا تتركه السورة في حيرته، بل يأتي الجواب من المصدر نفسه الذي أنزل القرآن:

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وهنا تتجلى رحمة الوحي مرةً أخرى؛ فالله لا يوقظ السؤال ليعذب الإنسان بالغموض، بل لتهيئته للجواب. لكنه جواب يفتح من الدهشة أكثر مما يغلق؛ إذ كيف يمكن لليلة واحدة محدودة الساعات أن تكون خيراً من ألف شهر؟ وما المقياس الذي يُقاس به هذا التفاضل؟ وكيف نتفوق لحظات قليلة على امتداد يزيد على ثلاثة وثمانين عاماً؟

إن الآية المقبلة ستنسف التصور الحسابي للزمن، وتكشف أن الساعات لا تتساوى بما تحمله من الإيمان والإخلاص والبركة، وأن العمر ليس مجموع الأيام التي مرت على الجسد، بل مجموع المعاني التي وُلدت في الروح والأعمال التي ارتفعت إلى الله. وسوف نرى أن الإنسان قد يعيش زمناً طويلاً دون أن يتقدم خطوةً نحو غايته، ثم يصدق في ليلة فيطوي ببركة الله مسافات كانت تحتاج في حساب البشر إلى أعمار.

لقد أوقفنا السؤال على باب التعظيم، وجرّدنا من وهم الإحاطة،
ورد إلينا دهشتنا، وهياً القلب لتلقي الجواب. والآن تنفتح أمامنا
المفارقة التي لا يشبهها شيء في حساب الزمن:

ليلة واحدة... خير من ألف شهر.

الفصل الثالث

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

حين تنتصر البركة على حساب الزمن

جاء الجواب بعد سؤال التعظيم مباشراً، واضحاً، ولكنه من فرط وضوحه يفتح في العقل دهشةً جديدة: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. لم تقل الآية إن ليلة القدر تساوي ألف شهر، فالمساواة تبقي الطرفين داخل ميزان واحد، وإنما قالت: ﴿خَيْرٌ﴾، وتركت مقدار الخيرية مفتوحاً؛ فكأن الألف ليست حداً نهائياً لفضلها، بل مقياساً تقريبياً يرفع الإدراك الإنساني إلى أقصى ما يستطيع تصويره، ثم يترك وراء ذلك للفضل الإلهي أفقاً لا تحيط به الأرقام. إنها خير من زمن طويل مكتمل، وخيريتها ليست في عدد ساعاتها، بل فيما جعل الله فيها من البركة والعبادة والمغفرة وتنزل الملائكة واتصال الأرض بأمر السماء.

إنها آية تهز مفهوم الزمن من جذوره؛ لأن الإنسان اعتاد أن يرى القيمة في الامتداد: كلما طال العمل ظنه أعظم، وكلما كثرت السنوات توهم أن الحصيلة أضخم، وكلما ازداد العدد اطمأن إلى النتيجة. ثم تأتي الآية لتقول إن الحساب وحده لا يكشف الحقيقة، وإن الزمن ليس أوعيةً متساويةً يمر بعضها بعد بعض بلا اختلاف، بل قد يضع الله في لحظة من المعاني والآثار ما لا يضعه في أعوام طويلة؛ فليست القضية دائماً: كم عشت؟ بل: كيف عشت؟ وليست: كم فعلت؟ بل: أي شيء فعلت، ولمن فعلته، وبأي قلب قدمته؟

ما وراء الألف

الألف في لسان العرب عدد يبلغ بالتصور غاية الكثرة، واختير الشهر دون السنة لأن مقابلة الليلة بالشهور تجعل المفارقة أشد حضوراً: ليلة واحدة تقابل أكثر من ثلاث وثمانين سنةً من الزمن المتتابع. وهذه مدة تتجاوز غالب أعمار البشر أو تقارب العمر الطويل منهم؛ فكان الله يهب أمة النبي محمد ﷺ، التي قصرت أعمار أفرادها بالقياس إلى أعمار من سبق، فرصةً تستطيع فيها أن تدرك بفضل الله ما تعجز عنه بطول البقاء.

غير أن الآية لم تقل: كَأَلْفِ شَهْرٍ، ولم تقل: تعدل ألف شهر، وإنما قالت: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾؛ فالفضل لا يقف عند حدود الرقم، والخير لا ينغلق داخل معادلة جامدة. ولو أريدت المساواة لقيلت، لكن لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ يفتح الباب على زيادة لا يعلم مقدارها إلا الله، ويجعل الألف بداية لفهم العطاء لا نهاية له. وكلما حاول العقل أن يحيط بالفضل، وجد أن العبارة تدفعه إلى ما وراء حسابه: إنها ليست ألف شهر فحسب، بل خير منها.

وفي اختيار الألف ما ينقل النفس من منطق الأجر المحدود إلى أفق الكرم الإلهي. فالعبد يقوم ساعات قليلة، والله يكتب له من الفضل ما يتجاوز عمل عمر طويل؛ وهو يرفع يديه بكلمات معدودة، لكن الدعاء الصادق قد يغير اتجاه حياته؛ ويتوب في لحظة، فيمحو الله عنه سنوات من الذنب. وهذه ليست دعوة إلى الاتكال وترك العمل، بل تعريف بمن نعبده: رب كريم لا يكافئ عباده على قدر أعمالهم وحدها، إذ لو عاملهم بالعدل المجرد لهلكوا، وإنما يتفضل عليهم بما لا تبلغه أعمالهم، ويضاعف الحسنه، ويستر السيئة، ويفتح

باب العودة، ويجعل في مواسم الطاعة من البركة ما يجبر به قصر الأعمار وضعف الجهود.

البركة: حين يتسع القليل

البركة ليست زيادة العدد بالضرورة، بل زيادة الخير في الموجود؛ فقد يكون الشيء قليلاً في صورته عظيماً في أثره، وقد يكون كثيراً في جمعه منزوع الثمرة. ورب ساعة مباركة تنجز في الروح ما لم تنجزه أعوام، ورب كلمة صادقة تبقى في التاريخ بعد أن تتطفئ آلاف الخطب، ورب كتاب صغير الحجم يعيد تشكيل وعي جيل، ورب موقف واحد يرفع قدر صاحبه لأنه جمع فيه إخلاص العمر كله.

وليلة القدر هي الصورة الكبرى لانتصار البركة على الكم؛ ساعات محدودة تمتد من غروب الشمس إلى مطلع الفجر، لكنها تحمل من الخير ما يتجاوز ألف شهر. الزمن هو الزمن في قياس الحركة الفلكية، غير أن الله يودع فيه من فضله ما يجعله أثقل في الميزان، وأوسع في الأثر، وأبعد امتداداً في المصير. فالمؤمن لا يعبد الأرقام، وإن كان يحسن حسابها وتنظيمها، بل يعلم أن وراء العدد سرّاً اسمه القبول،

وأن كثيراً قد تذهب به آفة الرياء، وقليلاً قد يرفعه الإخلاص حتى يبلغ منازل لا يتوقعها صاحبه.

وكم في حياة الناس من كثرة بلا بركة: مكتبات كثيرة لا تصنع قارئاً، ومعلومات متدفقة لا تصنع حكمةً، واتصالات واسعة لا تبدد الوحدة، وأموال متزايدة لا تمنح الطمأنينة، وساعات ممتلئة بالأعمال لا تقرب الإنسان من غايته. لقد استطاعت الحضارة الحديثة أن تزيد سرعة الحياة، لكنها لم تضمن أن تزيد معناها؛ اختصرت المسافات، لكنها لم تمنع اغتراب القلوب؛ وفرت أدوات الاتصال، لكنها لم تضمن صدق التواصل؛ وضاعفت القدرة على الإنتاج، لكنها لم تجب وحدها عن السؤال: لأي غاية ننتج، وإلى أي إنسان نريد أن نصل؟

وتأتي ليلة القدر لتعيد السؤال من الخارج إلى المركز: ليست المشكلة دائماً في قلة الوقت، بل قد تكون في غياب البركة عنه؛ وليست النجاة في أن تمتلك ساعات أكثر، بل في أن تعرف أين تضع الساعات التي مُنحتها. فقد يشكو الإنسان ضيق الوقت، ثم ينفق أجزاءً كبيرة منه في التشتت والمقارنات والخصومات وملاحقة ما لا ينفع؛ ولو اجتمع

قلبه على غاية واضحة، وأخلص في سعيه، واستعان بالله، لانفتح له في الزمن من السعة ما لم يكن يراه.

ليست الأعمار بعدد الأيام

تكشف الآية أن العمر الحقيقي ليس مجموع الأيام التي بقي فيها الجسد حياً، بل مقدار ما تحقق خلالها من إيمان ووعي وعمل صالح. وقد يبلغ رجل في ثلاثين سنة من النضج والأثر ما لا يبلغه غيره في ثمانين؛ لا لأن قانون الزمن تبدل، بل لأن الأول عاش أيامه حاضراً، بينما مر الآخر على عمره غائباً. فهناك من يعبر الزمن، وهناك من يعبر الزمن من خلاله دون أن يحتفظ منه إلا بتغيير ملامحه.

إن المرء قد يعيش اليوم الواحد مرات كثيرة بأسماء مختلفة: يستيقظ للعادات ذاتها، ويكرر المخاوف نفسها، ويدور في الأفكار عينها، حتى تصبح السنوات تكراراً ليوم لم يكتمل. وليس طول العمر نقيصةً، بل هو نعمة إذا حسن العمل فيه، ولكن الخطر أن يظن الإنسان أن مجرد البقاء إنجاز، وأن كثرة المناسبات التي شهدها تعني

أنه نما. فالعمر قد يتقدم رقيقاً بينما تتوقف الروح في موضع قديم،
تعمل الحقد نفسه، وتكرر الخطأ نفسه، وتتوغل التوبة نفسها.

وليلة القدر تقول للإنسان إن القيمة يمكن أن تولد الآن، وإن
اللحظة الحاضرة ليست أسيرةً لما سبقها. ربما أضعت أعواماً، لكن لا
تجعل الندم على ضياعها يضيع ما بقي؛ وربما دخلت الطريق متأخراً
في حساب البشر، لكن الله يستطيع أن يبارك في خطواتك حتى تبلغ
بإخلاصك ما لم يبلغه من تقدمك زمناً. فالتأخر الحقيقي ليس أن تبدأ
بعد غيرك، بل أن تعرف الطريق ثم تظل واقفاً؛ والخسارة ليست في
ماضٍ أخطأت فيه وحده، بل في حاضر تُصر على أن تجعله امتداداً
لذلك الماضي.

وهنا تشرق الآية بوصفها خطاب رجاء للمثقلين بتاريخهم: إذا
كانت ليلة واحدة خيراً من ألف شهر، فلا تقل إن ما بقي لا يكفي.
إن الذي يضع في الليلة بركة العمر يستطيع أن يضع في بقية حياتك
من الخير ما يجبر صدقه طولَ غفلتك؛ لا بمجرد الأمنية، بل بتوبة
تستعيد بها وجهتك، وعمل صالح تصدق فيه، وحقوق تردها، وقرآن
تعود إليه، وقلب تكف عن تسليمه للضغائن.

قيمة العمل بسره لا بصورته

لا تتفاضل الأعمال في ميزان الله بحجمها الظاهر وحده؛ فقد يتشابه رجلان في الصلاة، وبين صلاتيهما من البعد كما بين حضور وغفلة، وإخلاص ورياء، وانكسار واستعلاء. وقد يتصدق اثنان بالمقدار نفسه، فيخرج المال من يد أحدهما ولا يخرج حب الدنيا من قلبه، بينما يعطي الآخر وهو يجاهد حاجته ويستر عطائه ويتبغى وجه الله. الصورة واحدة، لكن الحقيقة مختلفة، لأن العمل ليس جسداً من الحركات فقط، بل روح من النية والصدق.

وهذا سر من أسرار خيرية ليلة القدر؛ فالمؤمن لا يدخلها ليجمع عدداً أكبر من الركعات فحسب، وإنما ليقدم لله قلباً أصدق. قد يطيل إنسان القيام، لكن قلبه يدور حول إعجاب الناس به، وقد يصلي آخر ركعات قليلة غلبه فيها البكاء من معرفة تقصيره، فتكون لحظات صدقه أثقل في الميزان. وليس في هذا تقليل من كثرة العبادة، فالحب يكثر ما استطاع، وإنما هو تحذير من أن تصبح الكثرة حجاباً عن الإخلاص، أو أن يطمئن المرء إلى صورة عمله وينسى نظر الله إلى قلبه.

لقد جعلت ليلة القدر خيراً من ألف شهر بفضل الله، لا بقوة الأداء البشري وحده؛ ومن هنا ينبغي أن يدخلها العبد متبرئاً من حوله، لا معجباً بقدرته على السهر، ولا معتداً بعدد ختماته، بل راجياً أن يقبل الله منه القليل ويبارك فيه. فالقبول هو السر المجهول الذي ينبغي أن يخافه العاملون ويرجوه، وكَم من عمل صغير عظّمتَه نية، وكَم من عمل ظاهر ضخم أفسدته رغبة مستترة في المنزلة عند الخلق.

وحين يفهم الإنسان هذا، لا يحتقر معروفاً لصغره، ولا يستصغر كلمة طيبة، ولا يؤجل الخير حتى تتوافر له صورة بطولية منه. ربما كانت ابتسامة في وجه منكسر، أو ستر لعيب، أو تنازل عن انتقام، أو لقمة تساق إلى محتاج، أو دعوة خفية في جوف الليل، أو سع أثراً عند الله من أعمال كثيرة يملؤها الضجيج. إن ميزان السماء يلتقط من سرائر الأشياء ما لا تراه موازين الأرض.

الاستدراك ليس اختصاراً رخيصاً

قد يُساء فهم الآية فيتوهم متوهم أن ليلة القدر طريق مختصر يغنيه عن الاستقامة في بقية العام؛ فينتظر ليلة واحدة ليضعف فيها العمل،

ثم يعود بعد الفجر إلى الغفلة نفسها. وهذا عكس مقصدها؛ فخيرية الليلة لا تجعلها بدلاً من عمر الطاعة، بل تجعلها منطلقاً إليه، ومن ذاق فيها معنى القرب ينبغي أن يظهر أثره في أيامه التالية. إن الله لم يفتح موسم الرحمة ليشجع على الانقطاع بعده، وإنما ليعين الإنسان على تأسيس عهد جديد.

وليس الاستدراك أن يؤدي المرء طاعات كثيرة في ساعات ثم يصر على حقوق الناس، أو يرفع صوته بالدعاء بينما يبقى في عنقه مال مظلوم، أو يسأل العفو وهو لا يعفو عن زل في حقه، أو يرجو السلام وقلبه مصنع للعداوات. إن العبادة التي لا تمس أخلاق الإنسان تبقى ناقصة الأثر، والقرآن الذي لا يغير طريقته في معاملة الضعيف لم ينزل بعد إلى أعمق موضع فيه.

التوبة الحقيقية ليست لحظة شعورية عابرة، وإن كانت تبدأ من لحظة انكسار، إنها إعادة ترتيب عملية للحياة. فمن تاب من مظلمة ردها أو طلب المسامحة، ومن تاب من عادة أغلق أبوابها، ومن تاب من صحبة تفسده أعاد النظر في قربها، ومن تاب من هجر القرآن جعل له موعداً ثابتاً لا يتركه لانفعاله المؤقت. أما أن يبكي الإنسان في ليلة ثم

يحمي أسباب ذنبه في نهاره، فهو يريد أثر التوبة دون أن يدفع ثمنها الأخلاقي.

وليلة القدر لا تمنح الإنسان حيلةً على الدين، بل تمنحه فرصةً للصدق. إنها لا تقول له: عش كيف شئت ثم اشتر النجاة بساعات، بل تقول: قد تستطيع في ساعات صادقة أن تتخذ القرار الذي عجزت عنه سنوات، وأن تبدأ الطريق الذي طال تأجيله، وأن تستمد من نفحتها قوةً تعينك على بقية العمر.

ألف شهر من ماذا؟

لم يذكر النص ألف شهر من نوع معين، ولم يقل: خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وإن كان هذا المعنى مفهوماً عند المفسرين في بيان التفاضل؛ وجاء التعبير مطلقاً ليملاً الوعي بطول المدة وعظمة الفضل. فالعبادة والعمل الصالح فيها خير من العمل في زمن طويل لا يشتمل على هذه الليلة، بما جعله الله فيها من مضاعفة وبركة.

غير أن إطلاق الآية يوقظ سؤالاً تربوياً: كم من الشهور يمر بنا ونحن لا نصنع فيها شيئاً يليق بالعمر؟ ثلاث وثمانون سنة قد تبدو زمناً

هائلاً، لكن كم يبقى منها إذا حذفنا النوم والغفلة والتردد
والخصومات والأعمال التي لا أثر لها؟ إن العمر الذي نظنه طويلاً
يتناقص سريعاً حين نميز بين الوقت الذي مر والوقت الذي عشنا فيه
بوعي.

فالأية لا تعظم الليلة وحدها، بل تكشف فقر شهرنا حين تخلو
من الغاية. ليلة واحدة امتلأت بالوحي فغلبت ألف شهر؛ فماذا لو
امتلأت أيامنا بما يرضي الله؟ وماذا لو حملنا من ليلة القدر إلى الشهور
التالية شيئاً من حضورها؟ إن المطلوب ليس أن نجعل كل ليلة
مساويةً لها، فهذا فضل اختصها الله به، وإنما أن نتعلم منها أن الزمن
وعاء، وأنا مسؤولون عما نضع فيه.

قد يكون الشهر طويلاً في التقويم، لكنه يمر في الذاكرة خفيفاً
لأننا لم نزرع فيه معنى؛ وقد تكون ليلة قصيرة تبقى معنا طوال العمر
لأنها شهدت قراراً أو توبةً أو انكشافاً داخلياً. نحن لا نتذكر من أعمارنا
كل الأيام بالتساوي، بل تحفظ الذاكرة المنعطفات؛ وتعلبنا ليلة القدر
أن نصنع منعطفاتنا في جهة الله، لا أن نتنظر حتى تصنعها المصائب
وحدها.

الزمن بين النعمة والمسؤولية

الزمن من أعدل ما وُزِعَ بين الناس في ظاهره اليومي؛ لكل إنسان أربع وعشرون ساعة، لكن النتائج تتفاوت لأن الناس يختلفون فيما يودعونه في الساعات، ثم تتفاوت فوق ذلك بما يضعه الله فيها من توفيق وبركة. فمنهم من يدخل يومه بلا غاية فتختطفه التفاصيل، ومنهم من يعرف أولوياته فيمنح كل أمر قدره، ومنهم من يعمل كثيراً لكن قلبه موزع، ومنهم من يجتمع على عمل قليل فيخرج منه بأثر عظيم.

وقد أقسم الله بالعصر، وأخبر أن الإنسان لفي خسر، لأن الزمن لا يقف محايداً؛ كل لحظة تمضي تأخذ معها جزءاً من العمر لا يعود. نحن لا ننفق الوقت فحسب، بل ننفق أنفسنا فيه؛ فحين نعطي ساعةً لشيء، نعطيهِ قطعةً من حياتنا. ولذلك كان السؤال الأخلاقي عن الوقت أشد من السؤال الإداري: ليس المهم فقط كيف أنظم يومي، بل أي شيء يستحق أن أمنحه يومي؟ فقد يكون المرء منظمًا جداً في السير نحو غاية تافهة، ناجحاً في إنجاز ما كان ينبغي ألا يستولي على عمره أصلاً.

وليلة القدر تعيد ترتيب الأولويات؛ ففيها يترك المؤمن بعض مألوفه ونومه وراحته، لا لأنه يعادي الجسد، بل لأنه اكتشف أن هناك ما يستحق أن يسهر له. إن الناس يسهرون طويلاً لما يحبون: لمكسب ينتظرونه، أو حديث يأمنون به، أو خبر يتابعونه، أو ألم يمنعهم النوم؛ فإذا جاء وقت الوقوف بين يدي الله ثقلت عليهم الدقائق. وليس هذا عجزاً جسدياً دائماً بقدر ما يكشف أحياناً عن ترتيب المحبة في القلب.

ومع ذلك، لا يطلب الدين تعذيب الأجساد ولا تجاهل اختلاف القدرة والمرض والعمل والسن؛ فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ورب قائم بقلبه وإن عجز جسده، ورب مريض منعه ألمه من طول الصلاة فسبقت نيته أعمال أصفاء. القضية ليست منافسةً في الساعات، بل بذل الوسع بصدق، وأن يرى الله من عبده أنه عرف قدر الليلة ولم يعاملها بالفتور الذي يعامل به ما لا يعنيه.

عصر السرعة وفقر الحضور

لم يعرف الإنسان زمنًا يمتلك فيه من أدوات توفير الوقت مثل عصرنا، ومع ذلك يبدو كثير من الناس أشد شكوى من ضيقه. اختصرت الرحلات، وتسارعت الرسائل، وأصبحت المعارف في متناول اليد، لكن الزمن الموفر لم يتحول دائمًا إلى حياة أعمق؛ ملأته مطالب جديدة، وتنبهات لا تنتهي، وشاشات تقطع الانتباه إلى شظايا، حتى صار الإنسان حاضراً بجسده في موضع، موزعاً بوعيه بين مواضع كثيرة.

إن أزمة الإنسان المعاصر ليست قلة المعلومات، بل تشتت الانتباه؛ وليلة القدر لا تمنحه وقتاً مباركاً فقط، بل تدعوه إلى قلب مجتمع. فما قيمة أن يبقى مستيقظاً حتى الفجر، إذا كان ينتقل بين الصلاة والهاتف، وبين الدعاء والمقارنة، وبين القرآن ومراقبة ما يفعله الآخرون؟ قد يكون الجسد في المسجد والعقل في الأسواق الافتراضية التي لا تغلق أبوابها.

والخشوع ليس فراغ الذهن التام، فهذا قد يعسر على البشر، وإنما هو إعادة القلب كلها شرد، ومجاهدة ترده من التشتت إلى المقصود. وفي كل عودة عبادة خفية؛ لأن العبد يعترف عملياً أن ما عند الله أحق بانتباهه. وربما كانت إحدى أهم عبادات ليلة القدر في عصرنا أن يسترد الإنسان سيادته على انتباهه، وأن يغلق بعض نوافذ الضجيج ليترك نافذة القرآن مفتوحة.

لقد صارت الشركات تتنافس على ثواني النظر البشري، لأن الانتباه ثروة؛ فمن ملك انتباه الإنسان استطاع أن يوجه رغباته وقراراته. والمؤمن أحوج ما يكون إلى معرفة أن قلبه أثنى من أن يُترك لكل طارق، وأن عمره لا ينبغي أن يُبعثر في متابعة ما لا يزيده علماً ولا عملاً ولا رحمة. وليلة خير من ألف شهر تعلّمه أن لحظة حضور قد تفوق ساعات التشتت، وأن جودة العبادة ليست في استمرار الحركة وحدها، بل في اجتماع الروح على من تناجيه.

حين يعوض الكرم قصر العمر

من رحمة الله بأمة محمد ﷺ أن فتح لها أبواباً واسعة للأجر مع قصر أعمارها؛ فالأعمال بالنيات، والحسنة تضاعف، والدال على الخير كفاعله، ومن سن سنةً حسنةً امتد إليه أثرها، والعلم النافع والصدقة الجارية والولد الصالح تتجاوز حياة صاحبها، ثم تأتي ليلة القدر لتمنح العمل فيها هذا الامتداد العظيم.

وكان الله يعلم عباده ألا يأسوا أمام اتساع الخير الذي فاتهم؛ فليست العبرة بأن تستطيع أن تفعل كل شيء، بل أن تصدق في الشيء الذي أقامك الله فيه. قد لا يملك المرء مالاً كثيراً، لكنه يملك كلمةً تهدي، أو علماً ينفع، أو خلقاً يصون به من حوله، أو دعاءً لا يعلمه أحد. وقد لا يعيش طويلاً، لكن أثره يستطيع أن يعيش بعده إذا اتصل بالحق.

إن بعض البشر يطاردون الخلود في الشهرة، يريدون أسماءهم باقيةً ولو انفصل البقاء عن القيمة؛ أما القرآن فيمنح مفهوماً آخر للامتداد: أن يبقى الخير ولو نسي اسم صاحبه. قد يزرع إنسان فكرةً صالحة، أو

يربي طفلاً على الصدق، أو يعين طالباً لا يعرفه، ثم تمتد الدوائر بعد موته دون أن ينسب الناس إليه شيئاً؛ لكنه يجد أثره كاملاً في كتاب لا ينسى.

وليلة القدر تربي هذا النوع من الطموح: ألا تسأل فقط كيف أكبر في أعين الناس، بل كيف يبارك الله في عملي حتى يتجاوزني؟ فالبركة قد تجعل الكلمة أبعد من قائلها، والكتاب أوسع من عمر مؤلفه، والموقف الصادق نوراً تهتدي به أجيال لم يرها صاحبه.

الليلة لا تلغي شروط القبول

مع عظمة الفضل، تبقى العبادة قائمةً على الإيمان والاحتساب، كما صح عن النبي ﷺ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». فليس السهر وحده هو المقصود، بل القيام الذي يدفعه الإيمان بوعده الله، ويطلب به صاحبه وجهه وثوابه، لا عادة المجتمع ولا سمعة التعبد.

إيماناً: تصديقاً بالله، وتعظيماً لشعيرته، وثقةً بوعده، واستجابةً لأمره.

واحْتِسَابًا: إِخْلَاصًا وَطَلَبًا لِلْأَجْرِ مِنْهُ، لَا انْتِظَارًا لِثَنَاءِ النَّاسِ وَلَا مِكَافَأَةً دُنْيَوِيَّةً عَاجِلَةً.

وقد يجتمع الناس في صورة العمل، ثم تنفرق بهم النيات إلى مسافات بعيدة. يدخل أحدهم الليلة لأنه وجد الناس يدخلونها، ويدخلها آخر لأنه استحي أن يفوت الموسم، ويدخلها ثالث لأن قلبه عرف حاجته إلى الله؛ وكلهم في المكان نفسه، لكن لكل واحد منهم ليلته الباطنة. إن الله لا ينظر إلى الصفوف من خارجها فقط، بل يعلم من جاءه، ومن جاء إلى صورته عند الناس، ومن تحرك جسده بينما بقي قلبه خارج الباب.

ولهذا كان إصلاح النية عملاً متجددًا، لا قرارًا يُتخذ في بداية العبادة ثم يُضمن بقاءه. قد يبدأ الإنسان مخلصًا ثم يتسلل إليه الإعجاب، وقد يبدأ مشتتًا ثم يصدق في منتصف الطريق؛ والقلوب تنقلب، والمؤمن يراقبها بلا وسواس ولا تزكية لنفسه، ويردها كلما انحرفت إلى مقصدها: اللهم إن هذا لك، فلا تجعل لأحد فيه شيئًا.

الدعاء الذي يلخص الليلة

حين سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ: إن وافقت ليلة القدر فما أقول؟ علمها أن تقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي». وهو دعاء قصير في ألفاظه، واسع في معناه، ينسجم مع سر الليلة كلها؛ ففي ليلة تتجاوز بركتها الحساب، يطلب العبد من الله عفواً يتجاوز به حساب تقصيره.

لم يعلمها النبي ﷺ أن تبدأ بطلب المال أو طول العمر أو تحقيق الرغبات، مع جواز سؤال الله خيري الدنيا والآخرة، وإنما دلها على العفو؛ لأن أعظم ما يحتاجه الإنسان حين يقف أمام ربه أن يحو الله عنه أثر ذنبه، وأن يظهر صحيفته، وأن يزيل الحجاب الذي صنعتته المعاصي بين قلبه والهداية. فإذا حصل العفو، فما الذي يخسر العبد؟ وإذا حُرِمَ العفو، فأَيُّ مكسب يعوضه؟

والعفو أبلغ من مجرد المغفرة في ظلاله؛ ففيه المحو والتجاوز والفضل. والمؤمن لا يقول: اعف عني لأنه يجهل ذنوبه وحدها، بل لأنه يعرف من نفسه ما يكفي ليكسر عجبها. ولو انكشف له كل

تقصيره في حق الله، وكل ما دخل نياته، وكل نعم الله التي استعملها في غير مراده، لما وجد لنفسه ملجأً إلا العفو.

لكن من التناقض أن يطلب الإنسان من الله عفواً يحبه، ثم ينجل بالعفو عن البشر حين يقدر؛ أو أن يسأل محو زلته بينما يجعل زلات الآخرين هويةً نهائيةً لهم. وليس معنى العفو ترك الحقوق أو تمكين الظالم من تكرار ظلمه، فقد تستلزم الحكمة وضع الحدود وأخذ الحق، لكن قلب المؤمن لا يتلذذ بالانتقام ولا يبني حياته كلها حول الإساءة. إنه يحب من العفو بقدر ما يرجو أن يعامله الله به، ويعرف أن القوة ليست دائماً في الرد، بل قد تكون في التحرر من عبء الخصومة.

ليلة واحدة قد تغير المصير

ليست ليلة القدر عظيمةً لأن فيها ثواباً مضاعفاً فحسب، بل لأنها تمنح الإنسان لحظةً مركزةً يعيد فيها النظر إلى مسار حياته. وفي لحظات التركيز الروحي تكشف حقائق كان ضجيج الأيام يحجبها: علاقات تستنزفه، وعادات تسرق إرادته، ومظالم ظل يؤجل ردها، وأحلام

ابتلعت عمره دون أن تقربه من الله، وأعمال خير يعرف أنها رسالته لكنه يهرب منها خوفاً أو كسلاً.

وقد لا يحتاج تغيير المصير إلى مئات القرارات، بل إلى قرار مركزي صادق تنفّرع عنه بقية التحولات: أن يكون الله هو الغاية، وأن يصبح القرآن هو الميزان، وأن يكف الإنسان عن التفاوض مع الذنب الذي يهدمه، وأن يبدأ بإصلاح ما يستطيع بدل انتظار ظروف مثالية لا تأتي.

القرارات الكبرى كثيراً ما تولد في لحظات لا يراها أحد؛ قد يرفع العبد يديه في ظلمة الليل، ويعاهد الله على طريق، ثم يطلع الفجر والعالم لا يعرف أن إنساناً جديداً بدأ يتكون. لا تصاحب التحولات الداخلية دائماً أصوات وصور، لكنها قد تكون أعظم من أحداث تملأ الأخبار؛ لأن انهيار صنم في قلب واحد قد يغير حياة أسرة، ثم يمتد أثره إلى أجيال.

وهذا لا يعني أن كل انفعال في الليلة تحول دائم؛ فالفرق بين الخاطر والعهد هو ما يأتي بعدهما من الثبات. فإذا طلع الفجر، بدأ

امتحان الصدق: هل سيحافظ الإنسان على صلاته؟ هل سيفتح المصحف بعد رمضان؟ هل سيبتعد عن الباب الذي تعهد ألا يعود إليه؟ هل سيرد الحق الذي اعترف به في دعائه؟ إن الليلة تمنح الطاقة الأولى، لكن الطريق يحتاج إلى صبر يومي لا يراه الناس.

أن تصبح بقية الشهور امتداداً لليلة

ليس المطلوب أن تبقى المشاعر في درجتها نفسها بعد ليلة القدر، فالقلوب لها إقبال وإدبار، والنفوس تعود إلى أشغالها، وإنما المطلوب أن يبقى الاتجاه. قد يخف وهج البداية، لكن لا ينبغي أن ينطفئ المصباح؛ وقد يقل مقدار العبادة، لكن لا تنقطع؛ لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

ويمكن للإنسان أن يأخذ من الليلة عهداً عملياً صغيراً واضحاً: ورداً من القرآن لا يهجره، وركعات من الليل يحافظ عليها ولو قلت، وذنباً يغلق طريقه، وحقاً يرده، وعملاً نافعاً يبدأه. فالثبات على القليل الصادق خير من الاندفاع الهائل الذي ينهار بعد أيام؛ إذ المقصود أن تنتقل البركة من اللحظة إلى المسار.

وهكذا تصبح ليلة القدر مدرسةً في صناعة العمر: لحظة كثيفة المعنى تؤسس عادةً، والعادة الصالحة تشكل يوماً، والأيام تشكل شخصيةً، والشخصية تقود المصير بإذن الله. وبهذا لا تبقى الليلة جزيرةً مضئيةً تحيط بها شهور الغفلة، بل تصبح منبعاً يرسل نوره في العام كله.

الخير الذي لا تحيط به المقاييس

قال تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾، ولم يفصل وجوه الخير كلها، ليبقى اللفظ واسعاً: خير في عبادة العبد وثوابها، وخير في نزول القرآن، وخير في الرحمة والمغفرة، وخير في تنزل الملائكة، وخير في السلام، وخير فيما يحدث في القلوب من التوبة واليقظة. إنها خيرية تتوزع على ظاهر الإنسان وباطنه، وعلى لحظته ومصيره، وعلى الأرض والسماء.

والخير في التصور القرآني ليس دائماً ما يوافق رغبة الإنسان العاجلة؛ فقد تكون خيرية الليلة في دمة تكشف له قسوة قلبه، أو في ندم يؤلمه لكنه ينقذه، أو في دعاء لم يُعط فيه عين ما طلب لأن الله اختار له ما هو أصلح. نحن نختصر الخير أحياناً في تحقق أمانينا، أما

الله فيعلم أن بعض الأمانى لو تحققت لأفسدت أصحابها، وأن بعض المنع حماية، وبعض التأخير تربية، وبعض الكسر باب يعود منه الإنسان إلى ربه.

فمن قام ليلة القدر لا يدخلها مشروطاً على الله صورة الإجابة، بل واثقاً أن الدعاء عبادة، وأن الله يسمع، وأن إجابته تجري بحكمة لا بعجلة العبد. قد يعطيه مطلوبه، أو يصرف عنه شراً، أو يدخر له خيراً، أو يهيئه أولاً لما سأل؛ والمؤمن لا يعبد الله على شرط أن يفهم كل تدبيره، وإنما يسأله ويأخذ بالأسباب ثم يطمئن إلى أن اختيار الحكيم أرحم به من اختيار نفسه.

حين يسقط عذر الفوات

تسقط هذه الآية واحداً من أثقل الأعداء: لقد فات الأوان. فما دام الإنسان حياً، وما دام باب التوبة مفتوحاً، وما دامت مواسم الرحمة تعود، فلا يزال في العمر متسع لبداية صادقة. ليس معنى ذلك أن يضمن المرء إدراك ليلة أخرى، بل العكس: أن يعرف قيمة الليلة الحاضرة لأنه لا يدري أيذكر سواها أم لا.

إن التسويف ليس مجرد تأجيل للعمل، بل رهان على زمن لا نملكه. يقول الإنسان: سأتوب عندما أهدأ، وأقرأ حين أنفـرغ، وأصلح علاقتي بالله إذا انتهت مشكلاتي، ثم تنتهي مشكلة وتبدأ أخرى، ويمر العمر وهو ينتظر حياة خالية من الشواغل. لكن الحياة لا تفرغ تماماً؛ والمطلوب أن يصنع الإنسان طريقه إلى الله داخل ازدحامها، لا بعد انتهائها.

وفي ليلة القدر يواجه المرء حقيقة عمره بلا تعجيل: ربما تكون هذه آخر ليلة قدر تمر به. وهذه الفكرة ليست دعوةً إلى الخوف المرضي، بل إلى الصدق؛ فاستحضار النهاية يحررنا من التفاهة، ويجعلنا أقل استعداداً لإهدار الوقت في خصومات لا تستحق، وأكثر جرأةً على الاعتذار والمحبة وفعل الخير. من عرف أن الوقت محدود لم يؤجل الكلمات النبيلة طويلاً، ولم يجعل كبرياءه أغلى من السلام.

البركة بوصفها مسؤولية

أن يهب الله العبد ليلةً خيراً من ألف شهر فضل عظيم، لكنه ينشئ مسؤوليةً بمقدار هذا الفضل. فن عرف قيمة الموسم ثم أعرض

عنه بلا عذر، فليس كمن لم يبلغه الخبر؛ ومن أدرك رمضان ولم يسمح له أن يمس شيئاً من حياته، فقد مر على نهر عظيم وبقي عطشه كما هو.

والحرمان الحقيقي ليس ألا يرى الإنسان علامة الليلة، بل ألا يشاقق إليها؛ وأن تمر به فرصة المغفرة فلا يجد في قلبه حاجةً إليها؛ وأن يصبح الذنب عنده مألوفاً إلى حد لا يؤلمه. فالقلوب لا تموت حين تخطئ فقط، بل حين تفقد الإحساس بالخطأ، ولا تنجو بمجرد الحركة التعبدية، بل حين تبقى فيها قابلية الرجوع والانكسار.

لهذا كان على المؤمن أن يسأل الله التوفيق قبل العمل، والقبول بعده؛ فليس بلوغ الموسم بقدرته، ولا القيام فيه بقوته، ولا الثبات بعده بذكائه. كل ذلك مدد من الله، والعبد بين نعمة تستوجب الشكر، وتقصير يستوجب الاستغفار. وحين ينتهي من العبادة لا يقف موقف من أدى ديناً على الله، بل موقف الفقير الذي يرجو أن يتقبل الكريم هديته الناقصة.

من الزمن المبارك إلى الكون المحتشد

كشفت الآية الثالثة سرّاً من أسرار القيمة: أن ليلة واحدة قد تتجاوز ألف شهر. لكن ما الذي يجري في هذه الليلة حتى تبلغ هذه المنزلة؟ هنا تنتقل السورة من بيان الخيرية إلى فتح نافذة على عالم الغيب:

﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.

فليست الليلة زمناً مباركاً سائكاً، بل مشهد حركة سماوية متتابعة؛ الملائكة تنزل، والروح معها، وكل ذلك بإذن الله، والأوامر تجري بحكمته. والأرض التي يراها الناس غارقةً في صمت الليل تكون في حقيقتها محتشدةً بوفود السماء.

وهنا سيدخل بنا القرآن إلى عالم لا تراه الأبصار، لكنه أقرب إلى المؤمنين في تلك الليلة من ضجيج العالم المرئي؛ عالم الطاعة المحضّة، والتنفيذ الكامل، والرحمة النازلة، والكون الذي لا يتحرك فيه شيء استقلالاً عن أمر الله.

الفصل الرابع

﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾

الأرض حين تزدهم بأهل السماء

بعد أن رفعت السورة ليلة القدر فوق حساب الزمن، وكشفت أنها ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، فتحت للإنسان نافذةً على سر من أسرار هذه الخيرية، فنقلته من عالم الساعات الذي يعرفه إلى عالم الملائكة الذي يؤمن به ولا تراه عيناه: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. فإذا بالليلة التي تبدو في ظاهر الحس ساكنةً غارقةً في الظلام هي في حقيقتها ممتلئة بالحركة، وإذا بالأرض التي يراها الناس محاطةً بصمتها تستقبل أفواجاً من عالم الطهر، وإذا بالإنسان الذي ظن نفسه قائماً وحده في محرابه يكتشف بالإيمان أن الوجود من حوله أوسع بكثير مما تدركه الحواس.

إنها آية تنقذ وعي الإنسان من سجن المرئي؛ فالكون ليس هو الجزء الذي تصل إليه العين، والحقيقة لا تنتهي عند الحدود التي تقف

عندها أدوات القياس، والإنسان لا يعيش في عالم مادي مغلق لا نافذة فيه على الغيب. ثمة ملائكة خلقهم الله من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وثمة تدير إلهي يجري في الوجود، وثمة صلات بين السماء والأرض لا نحيط بكيفيتها، لكنها ثابتة بنجر الله. وفي ليلة القدر يتكاثف هذا الحضور الغيبي حتى تصير الأرض مهبطاً للملائكة، ويتحول الليل إلى مشهد كوني مريب تتجاوز فيه عبادة أهل الأرض وطاعة أهل السماء.

﴿تَنْزِيلٌ﴾: حركة تتجدد وتوالى ﴿﴾

لم يقل النص: نزلت الملائكة، بالفعل الماضي الذي قد يوحى بحادثة وقعت ثم انقضت، وإنما قال: ﴿تَنْزِيلٌ﴾، بالفعل المضارع الذي يرسم الحركة كأنها تقع الآن أمام القلب، ويشير إلى تجددتها في ليلة القدر كلما عادت بإذن الله. فالسورة لا تحكي تاريخاً غابراً فقط، بل تستحضر مشهداً متكرراً؛ تنزل الملائكة عاماً بعد عام، وتبقى الليلة باباً مفتوحاً للرحمة ما دامت الدنيا قائمة.

وفي صيغة ﴿تَنْزَلُ﴾ معنى التتابع والتدرج والكثرة؛ كأن الملائكة لا تهبط هبوطاً عابراً محدوداً، بل تتوالى أفواجها حتى تضيق الأرض بكثرة الطاهرين. وهذا من المعاني التي قيل إنها تتصل باسم القدر؛ إذ تضيق الأرض بالملائكة كما يقال: قُدِرَ عليه رزقه، أي ضُيِّقَ. والمعنى يصور لنا عالماً يحتشد حول المؤمنين، وإن كان النائمون والغافلون لا يرون شيئاً منه.

كم هي محدودة حواسنا أمام سعة الوجود! يسمع الإنسان سكوتاً بينما العالم الغيبي في حركة، ويرى ظلمةً بينما الرحمة تنزل، ويحسب نفسه وحيداً بينما تحيط به ملائكة لا يعلم عددها إلا الله. إن ما ندركه ليس معياراً لما هو موجود، وإن كثيراً من الحقائق الكبرى تقع قريباً منا دون أن تملك العين سبيلاً إليها. فهل لأننا لا نرى الروح ننكر أثرها؟ وهل لأننا لا نرى الملائكة نختصر الكون فيما تلتقطه العدسات؟ إن الحاسة أداة معرفة في مجالها، لكنها تصبح أداة جهل حين يدعي الإنسان أن مجالها هو الوجود كله.

وتحرر الآية المؤمن من الاستبداد المادي الذي لا يؤمن إلا بما يلمس؛ فهي لا تدعوه إلى الخرافة أو إلغاء الأسباب، وإنما إلى التمييز

بين الغيب الذي ثبت بالوحي والوهم الذي لا دليل عليه. الإيمان بالغيب ليس فتحاً لباب الادعاءات، بل انضباط بخبر الله ورسوله ﷺ؛ فنثبت ما أثبتته الوحي، ونتوقف عما لم يخبرنا به، ولا نحاول رسم تفاصيل عالم الملائكة بخيال منفلت، ولا نحول الغيب إلى حكايات نثير الفضول وتُضعف هيبة النص.

الملائكة: عالم الطاعة الخالصة

الملائكة خلق من خلق الله، عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وجودهم يفتح للإنسان أفقاً آخر لفهم الكون؛ فهذا العالم ليس ممتلئاً بصراع البشر وعصيانهم وحدهما، بل فيه مخلوقات قامت حقيقتها على الطاعة، وتسبح بحمد الله، وتحمل أوامره، وتكتب الأعمال، وتحف مجالس الذكر، وتستغفر للمؤمنين بإذن ربها.

وفي ليلة القدر تنزل هذه المخلوقات الطاهرة إلى الأرض؛ فكأن الليلة تجمع طاعة العالمين: الملائكة في تنزلها، والمؤمنين في قيامهم. أهل السماء ينزلون بأمر الله، وأهل الأرض يرتفعون بذكره ودعائهم؛ لا

ارتفاعاً مكانياً نكيفه، وإنما ارتفاع منزلة وقرب وطاعة. وبين التنزل والقيام لقاء معنوي عجيب: الملائكة تهبط إلى حيث أراد الله، والقلوب ترتقي إليه بالعبودية، فتغدو الأرض في تلك الساعات أقرب إلى صورتها التي أرادها الله: موضعاً للذكر والطهارة والسلام.

وإذا تأمل الإنسان طاعة الملائكة شعر بالخلج من تمرده؛ فالملك لا يعصي أمر الله، والإنسان الذي أكرمه الله بالعقل والاختيار يتردد في فريضة، ويسوّف توبةً، ويجادل في حق عرفه لأن هواه لا يريد. غير أن الفرق بين طبيعة الإنسان وطبيعة الملائكة مقصود؛ فالإنسان خلق مبتلى بالشهوة والاختيار، وفضيلته ليست في أنه لا يشعر بداعي المعصية مطلقاً، بل في أن يجاهد نفسه ويختار طاعة الله. ومن هنا كانت توبته بعد الزلل، وصبره في الفتنة، وإخلاصه في عالم الشهوات، أبواباً عظيمةً للارتقاء.

إن الآية لا تطلب منا أن نتوهم إمكان الخروج من بشريتنا، وإنما أن نستنير بطهارة الملائكة في صراعنا البشري؛ أن نخفف من ضجيج الاعتراض، ونسرع إلى الاستجابة، ونؤدي الأمانة دون تحريف، ونعلم أن شرف المخلوق ليس في استقلاله عن الله، بل في كمال عبوديته له.

لماذا خُصَّ الروح بالذكر؟

قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا﴾، والمراد بالروح عند جمهور المفسرين جبريل عليه السلام، وقد عطفه الله على الملائكة مع أنه منهم تشریفاً له وإظهاراً لعظيم منزلته، كما يُذكر الخالص بعد العام تنوياً بشأنه. إنه أمين الوحي الذي نزل بالقرآن على قلب النبي ﷺ، وواسطة البلاغ بين السماء ورسول الله بإذن الله؛ ولذلك يحضر ذكره في ليلة كان أعظم ما ميزها نزول القرآن.

ما أعمق هذا التناسق: الليلة عظمت بإنزال القرآن، والذي نزل بالقرآن أول مرة هو الروح الأمين، ثم يتنزل في ليلة القدر مع الملائكة كلما تكررت. كأن ذاكرة الوحي حاضرة في مشهد الليلة؛ جبريل الذي حمل النور إلى قلب محمد ﷺ يهبط في الموسم الذي بدأ فيه نزول ذلك النور، فتلقتي بداية الرسالة باستمرار بركتها.

ووصف جبريل بالروح يفتح ظلالاً من الحياة؛ فالقرآن نفسه سُمي روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾، لأن الأجساد تحيا بالأرواح، والقلوب تحيا بالوحي. وكما أن الجسد بلا

روح يتحول إلى صورة فاقدة للحياة، فإن الإنسان بلا هداية قد يتحرك
ويأكل ويجمع ويخطط، لكنه يفقد الحياة التي تليق بكرامته: حياة
المعنى والبصيرة والوجهة.

وليست كل حركة حياة؛ فقد تكون المجتمعات شديدة النشاط
وهي تسير نحو هلاكها، وقد يكون الإنسان ناجحاً في معايير السوق
لكنه ميت الضمير، وقد تمتلئ البيوت بالأجهزة وتخلو من السكينة.
الحياة القرآنية ليست ضد عمران الأرض، بل هي التي تمنح العمران
روحه، حتى لا يتحول التقدم إلى قوة بلا أخلاق، والعلم إلى أداة
للبطش، والمال إلى وسيلة لاستعباد الإنسان.

ومن هنا يصبح اجتماع الروح والقرآن في معنى ليلة القدر إعلانياً
بأن أعظم حاجة للبشر ليست أن تزيد أدواتهم فقط، بل أن تحيا
أرواحهم. فالآلة لا تحدد وحدها غاية استخدامهما، والمعرفة لا تضمن
أخلاق صاحبيها، والقوة لا تختار من ذاتها طريق العدل؛ لا بد من
الوحي الذي يضبط الوجهة، ويقول للإنسان إن كل قدرة أمانة، وكل
تفوق اختبار، وكل نعمة سؤال ينتظره أمام الله.

الأرض التي تتغير دون أن نراها

في ليلة القدر، لا تتغير تضاريس الأرض ولا تتوقف قوانينها المعتادة، لكن حقيقتها المعنوية تتبدل؛ تصبح موضعاً لتنزل الملائكة، ومجالاً لفيض السلام، ومسرحاً لعبادة تتجاوز في قيمتها ألف شهر. وقد لا يظهر شيء من ذلك للحواس، لأن أعظم التحولات ليست دائماً ماديةً ظاهرة.

نحن نميل إلى تصديق التغيير حين نراه في المباني والأرقام والمناصب، لكن تغيير قلب واحد قد يكون عند الله أعظم من تغيير مدن كاملة؛ إذ قد يُبنى الصرح ويظل الإنسان داخله خراباً، وقد تتوسع المؤسسة وتضيق أخلاق القائمين عليها، وقد ترتفع المؤشرات بينما تنخفض كرامة البشر. أما إذا تغير القلب من الظلم إلى العدل، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الغفلة إلى اليقظة، فقد بدأ عمران من نوع أعمق، سيظهر أثره في الخارج حين يستقيم الداخل.

ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يحتقر العمل الخفي. لعل دعاء لا يسمعه أحد يدفع الله به بلاء، ولعل دمعة في غرفة مظلمة تنقذ قلباً

من قسوة طويلة، ولعل قراراً أخلاقياً يتخذه إنسان في ليلة القدر يوقف سلسلةً من الظلم كانت ستمتد إلى غيره. الأرض لا تسجل هذه الأحداث في نشراتها، لكنها مسجلة في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

وليس المؤمن محتاجاً دائماً إلى مشاهدة نتائج طاعته كي يشق بقيمتها؛ فعبوديته لله لا للأثر العاجل. يزرع الخير لأنه خير، وقيم العدل لأنه أمر الله، ويقول الحق وإن لم يشهد انتصاره في حياته. فالأنبياء أنفسهم تفاوت عدد أتباعهم، ولم تكن قلة المستجيبين دليلاً على نقص صدقهم؛ القيمة في أداء الأمانة، أما الثمرات ففي يد الله وتوقيتها.

يَاذُنِ رَبِّهِمْ: لا حركة خارج السلطان ﴿﴾

جاءت العبارة الفاصلة: ﴿يَاذُنِ رَبِّهِمْ﴾، لتقرر أن تنزل الملائكة ليس حركةً مستقلةً عن أمر الله، وأن هذه المخلوقات العظيمة في نورانيتها وطاعتها لا تفعل شيئاً من ذاتها بعيداً عن سلطان ربها. إنها تنزل بإذنه، وتحمل أمره، وتنفذ ما كلفها به؛ فلا يستحق العبادة أحد

سواه، ولا تُصرف للملائكة خصيصة من خصائص الألوهية، فهم عباده المكرمون.

وتسمية الله هنا بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ تناسب مقام التدبير؛ فالرب هو الخالق المالك المدير المربي، والملائكة مع علو منزلتهم مربوبون له، قائمون بأمره، مفتقرون إليه. وإذا كان الملائكة لا يخرجون عن ربوبية الله، فكيف يتوهم الإنسان الضعيف أنه يستطيع أن يستقل عن ربه؟ وكيف يرى في الطاعة انتقاصاً لحريته، مع أن أعظم المخلوقات طهرًا تشرف بالعبودية؟

إن الحرية التي تنفصل عن الحقيقة لا تحرر الإنسان، بل تنقله بين العبوديات؛ يرفض عبادة الله فيعبد شهوته، أو صورته عند الناس، أو السوق، أو السلطة، أو الجماعة، أو الخوف. ولا يستطيع البشر أن يعيشوا بلا مرجعية عليا؛ فإذا لم يكن الله هو المرجع، احتلت موضعه آلهة صغيرة متنازعة، تأمر الإنسان اليوم بشيء وغداً بنقيضه.

والعبودية لله تحرر المرء من هذه الأرباب؛ حين يعلم أن الأمر كله لله، لا يبيع ضميره لأحد، ولا يضحخ البشر حتى يراهم مالكين

لمصيره، ولا يحتقر نفسه أمام نفوذهم. يأخذ بالأسباب، ويحترم الحقوق، ويتعامل بحكمة، لكنه يعلم أن كل قوة محدودة، وأن كل سلطة مؤقتة، وأن فوقها جميعاً رباً لا يكون شيء إلا بإذنه.

وفي قوله: ﴿يَا ذِينَ رَّبِّهِمْ﴾ سَكِينَةً لِلْقُلُوبِ الَّتِي أُرْعَبَتْهَا الْفَوْضَى؛ فالكون ليس منفلاً من يد الله، والأحداث — وإن خفيت حكمتها — لا تقع خارج علمه وسلطانه. وهذا لا يعني أن الله يحب كل ما يفعله البشر من ظلم، فقد أعطاهم الاختيار وحرّم عليهم البغي، وسيحاسبهم عليه؛ لكنه يعني أن الظالم لا يستطيع أن يخرج من ملك الله، ولا أن يعطل عدله الأبدي، ولا أن يصنع قدراً مستقلاً عن إرادته الكونية.

إن المؤمن قد لا يفهم لماذا سُمح لبعض الشرور أن تقع، لكنه يعرف أنها لم تفاجئ الله، وأنها ليست الكلمة الأخيرة، وأن العدل المؤجل لا يعني العدل الغائب. وهذه المعرفة لا تدعوه إلى السلبية، بل تمنحه شجاعة المقاومة؛ لأنه يعمل ضد الظلم وهو يعلم أنه متصل بميزان أعلى من موازين القوة العاجلة.

الإِذْنُ الَّذِي يَعْلَمُنَا أَدَبَ الْحَرَكَةِ

إذا كانت الملائكة لا تنزل إلا بإذن ربها، فالإنسان أولى بأن يتعلم ألا يتحرك في الوجود بلا ميزان. كثير من شقاء البشر يأتي من اندفاعهم قبل التثبت، وكلامهم قبل العلم، وحكمهم قبل السماع، وتصرفهم في حقوق غيرهم كأنهم مالكوها. يريد كل واحد أن يكون أمراً لا مأموراً، وأن يجعل رغبته إذناً كافياً للفعل.

أما العبودية فتعلم الإنسان أن يسأل قبل الحركة: هل يرضي هذا الله؟ هل هو حق؟ هل أملك صلاحية فعله؟ هل يترتب عليه ظلم؟ ليست كل قدرة إذناً، وليس كل ممكن مباحاً، وليس كل ما يستطيع الإنسان الوصول إليه يحق له امتلاكه أو نشره. قد يستطيع معرفة سر شخص، لكن ذلك لا يبيح فضحه؛ وقد يملك القوة على الانتقام، لكن القوة لا تجعل التجاوز عدلاً؛ وقد يجد فرصة للربح، لكن الإمكان الاقتصادي لا يطهر المال من الحرام.

إن عالماً يتسع فيه نفوذ الإنسان التقني يحتاج أكثر من أي وقت إلى أخلاق الإِذْن. فما يمكن فعله بالبيانات والصور والأسلحة

والتقنيات قد يتجاوز قدرة البشر على ضبط عواقبه، وإذا انفصلت
الإمكانية عن المسؤولية صار التقدم نفسه باباً للخطر. والآية ترد
الإنسان إلى أصل واضح: القوة كلها خادمة للأمر، لا بديلاً عنه،
والقدرة امتحان، لا تفويض مطلق.

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ: عالم يجري بالتدبير ﴿

ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، وهي عبارة مكثفة
اختلفت عبارات المفسرين في توجيهها؛ فقيل: تنزل الملائكة بكل أمر
قضاه الله في تلك السنة، وقيل: من أجل كل أمر، وقيل: بكل ما
أمرت به من شؤون التدبير والسلام والخير. والمعاني تلتقي عند أن
الملائكة تنزل بأمر الله ولأمره، وأن الليلة متصلة بتقديره وتديره، لا
أنها زمن متروك للمصادفة.

وبين القرآن في سورة الدخان أن في الليلة المباركة ﴿يَفْرُقُ كُلُّ
أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي يفصل ويبين من الأمور التي قضى الله إظهارها
وإنفاذها، وفق ما كتبه في أم الكتاب. وليس معنى ذلك أن علماً
جديداً يعرض لله — تعالى الله عن ذلك — فعله أزلي محيط، ولا أن

المقادير تنشأ عن جهل سابق، وإنما يظهر للملائكة ما شاء الله من تفاصيل التدبير، وتُسَلَّم إليهم ما يأمرهم بتنفيذه، وكل ذلك داخل علم الله وكتابته السابقة.

وهنا يقف الإنسان أمام القدر وقفةً تجمع بين الخشوع والعمل. فهو يؤمن أن الله قدّر الأشياء بعلمه وحكمته، لكنه لا يعرف ما كُتب له في الغيب، ولذلك أمر بالسعي والدعاء واتخاذ الأسباب. لا يجوز له أن يجعل القدر حجةً على الكسل أو المعصية؛ فمن يحتج بالقدر على ترك العمل يناقض نفسه، لأنه إذا جاع أكل، وإذا مرض طلب الدواء، وإذا خاف أغلق بابه. لماذا يقبل الأسباب في دنياه ثم يرفضها في دينه ومستقبله؟

إن القدر لا يلغي الإرادة البشرية، بل يضعها داخل سلطان الله. للإنسان اختيار حقيقي يحاسب عليه، لكنه اختيار مخلوق محدود لا يخرج عن مشيئة الخالق. وهذه الحقيقة أوسع من أن يحيط العقل بكيفيتها كلها، لكنها واضحة في آثارها: نحن نشعر بأننا نختار، ونفرق بين من فعل عامداً ومن أكرهه، والشرعة رتبت المسؤولية على هذا

الفرق؛ وفي الوقت نفسه لا يقع في ملك الله ما يعجزه أو يخرج عن علمه.

والتوازن الإيماني أن يعمل الإنسان كأن عليه واجب السعي كله، ثم يتوكل على الله كأن النتائج كلها بيده سبحانه — وهي كذلك. يحرث الأرض ولا يخلق البذرة، ويأخذ الدواء ولا يخلق الشفاء، ويخطط للمستقبل ولا يملك غده. فإذا نجح لم يتكبر، لأنه علم أن التوفيق من الله، وإذا أخفق بعد بذل السبب لم يتحطم، لأنه علم أن النتيجة لم تكن إلهه، وأن الله في المنع حكمة قد تظهر وقد تخفى.

القدر ليس سجيناً للإنسان

قد يفهم بعض الناس القدر على أنه قوة غامضة تسوقهم بلا معنى، فيستسلمون لأوضاع يمكن تغييرها، أو ينسبون إلى الله ظلماً صنعته أيدي البشر. يقول المظلوم: هذا قدرى، فيترك مقاومة الظلم المشروعة، ويقول الكسول: لو كُتِب لي النجاح لنجحت، وهو لم يأخذ بسبب، ويقول العاصي: قدر الله علي، مع أنه ذهب إلى المعصية بإرادته ولم يكن يعرف القدر قبل فعلها.

أما القرآن فيجعل الإيمان بالقدر مصدر قوة؛ لأن المؤمن يعرف أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فلا يستهلك نفسه في محاسبة الاحتمالات إلى ما لا نهاية، ويعرف أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يموت حسرةً على باب أغلقه الله، لكنه قبل وقوع الأمر يعمل ويستخير ويستشير ويبدل الوسع. فالقدر يُحتج به في المصائب لتسكين القلب، لا في المعائب لتبرير الذنب.

وليلة القدر لا تدعو الإنسان إلى الجلوس منتظراً ما تنزل به المقادير، بل تدعوه إلى القيام والدعاء والتوبة. وهذا وحده يكشف أن الإيمان بالتقدير لا يعطل العمل؛ ففي الليلة التي يتجلى فيها معنى الأمر الإلهي، تبلغ حركة العبد في العبادة ذروتها. كأن السورة تقول: حين تعلم أن الأمر لله، لا تتوقف، بل اطرق باب صاحب الأمر؛ وحين تعلم أن مصيرك ليس بيد البشر، تحرر من ذل التعلق بهم، واسأل من بيده ملكوت كل شيء.

الدعاء داخل القدر لا خارجه

يتساءل الإنسان: إذا كانت المقادير قد كُتبت، فما معنى الدعاء؟ والجواب أن الدعاء نفسه من القدر، وأن الله قد يقدّر حصول الشيء بسبب دعاء العبد كما يقدّر الشبع بسبب الطعام والشفاء بسبب الدواء. نحن لا نخرج بالدعاء من سلطان القدر، بل ننقل من قدر إلى قدر، من حال قدرها الله إلى حال قدرها بسبب جعله الله.

وقد علمنا النبي ﷺ الدعاء في ليلة القدر، ولو كان الدعاء بلا أثر لما دل الأمة عليه. لكن أثر الدعاء لا يُختزل دائماً في إعطاء الصورة نفسها التي طلبها العبد وفي الوقت الذي اختاره؛ فالله أعلم بما يصلحه، وقد يدفع عنه بالدعاء بلاءً لم يره، أو يدخر له الثواب، أو يؤخر الإجابة لحكمة، أو يعطيه ما هو خير من مطلوبه. وليس هذا تهرباً من معنى الإجابة، بل تحرير لها من تصور الإنسان المحدود الذي يريد أن يجعل علمه مرجعاً لحكمة الله.

الدعاء اعتراف عملي بأن الإنسان ليس سيد مصيره المطلق؛ فهو يخطط، لكنه يعلم أن خطته تحتاج إلى إذن الله، يأخذ بالأسباب،

لكنه لا يعبدها. وربما أعظم ما يمنحه الدعاء ليس تغيير الخارج أولاً، بل تغيير الداعي؛ إذ يعيده إلى فقره، وينزع عنه وهم السيطرة، ويجعله قادراً على استقبال الجواب أيّاً كانت صورته بقلب أوثق بالله.

في ليلة القدر يرفع الملايين أيديهم، لكل واحد منهم قصته وجرحه وأمنيته؛ مريض يطلب العافية، ومظلوم يسأل النصرة، ومذنب يرجو العفو، ومحروم يتنى الفرج، وأم تخاف على أبنائها، وغريب يشتاق إلى وطنه. ولا يختلط على الله صوت بصوت، ولا يشغله سؤال عن سؤال، ولا تنقص خزائنه بكثرة العطاء. هذه المعرفة وحدها تملأ القلب مهابةً وطمأنينة: رب العالمين يسمع الدعاء الخافت الذي قد يعجز صاحبه عن صياغته.

الملائكة والإنسان: مفارقة الطين والنور

تنزل الملائكة المخلوقة من نور إلى أرض يسكنها الإنسان المخلوق من طين، وفي هذا اللقاء دلالة على أن الأصل المادي لا يحكم المصير الروحي. الإنسان من طين، لكنه يستطيع بالإيمان أن يبلغ منزلةً تحبه فيها الملائكة وتدعوه له وتستغفر، ويستطيع بالمعصية والكبر أن يهبط

دون كرامة فطرته. ليست المادة هي التي تحدد القيمة، بل الموقف من أمر الله.

لقد كان إبليس سبب سقوطه أنه نظر إلى المادة وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾؛ فقام القياس بالقيمة بالأصل العنصري وتجاهل الطاعة والتكليف. ومنذ ذلك الحين تكرر الخطيئة الإبليلية كلما تفاخر إنسان بنسبه أو لونه أو طبقته، وجعل المادة السابقة على اختياره أساساً لاحتقار غيره. ويأتي مشهد ليلة القدر ليعلن ميزاناً مختلفاً: ملائكة النور تنزل إلى مواطن عبادة أبناء الطين، لأن الطين حين يسجد لله يرتفع، والنار حين تتكبر بأصلها تسقط.

إن كرامة الإنسان لا تستند إلى عرقه ولا ثروته، بل إلى ما يختار أن يصنعه بما وهبه الله. وقد لا يملك الإنسان تغيير موطنه أو ملامحه أو بداياته، لكنه يملك أن يختار موقفه الأخلاقي، وأن يحول ضعفه إلى باب افتقار، وألمه إلى بصيرة، وتجربته إلى رحمة بالآخرين. كم من إنسان ولد في بيئة قاسية فصار قاسياً يكرر ما فعل به، وكم من آخر مر

بالألم نفسه فقرر ألا يكون امتداداً له؛ التجربة واحدة، لكن الجواب الأخلاقي صنع قدراً مختلفاً.

الملائكة تحف مجالس الذكر

من المعاني التي توسع مشهد الآية ما ثبت في السنة من أن الملائكة تلتمس مجالس الذكر وتحفها، وأن السكينة تنزل على الذاكرين وتغشاهم الرحمة. وهذا يجعل المؤمن يعيد النظر إلى المجلس الذي يُذكر الله فيه؛ قد يكون بسيطاً في صورته، قليل الحضور، بعيداً عن الشهرة، لكنه في عالم الحقيقة محاطاً بملائكة الرحمة.

إننا نزن المجالس أحياناً بعدد الحاضرين أو فخامة المكان أو انتشار الصور، بينما للسماء موازين أخرى. قد يكون مجلس صغير تتلى فيه آية بصدق أكرم من حفل ضخم يملؤه التظاهر، وقد تكون أم تعلم طفلها الفاتحة في بيت متواضع داخلة في صناعة قدر لا تعرف مداه. ليست القيمة دائماً فيما يراه الجمهور، بل فيما يحضر معه الإخلاص وتحفه الرحمة.

وفي ليلة القدر يبلغ هذا المعنى ذروته؛ فالملائكة تنزل إلى الأرض كلها بما شاء الله من أمره، والمؤمن يجعل موضعه أهلاً للرحمة بالقرآن والصلاة والذكر. ولا ينبغي أن ينشغل بتخيل حضور الملائكة أو محاولة الإحساس الحسي بهم؛ فالإيمان لا يحتاج إلى اختراع مشاعر أو ادعاء مشاهدات. يكفيه تصديق الله، وأن يثر التصديق أدباً وسكينة وطهارة.

أيُّ قلب تستقبله الملائكة؟

حين يستحضر المؤمن تنزل الملائكة، ينبغي أن يسأل عن حال قلبه الذي يستقبل الليلة. الملائكة مخلوقات طاهرة تحب الطاعة والذكر؛ فهل يليق أن يملأ الإنسان ليلته بكلام الله بينما يخفي في صدره عزماً على العودة إلى الظلم؟ وهل يليق أن يسأل السلام وقلبه يصر على إشعال الحرب مع كل من خالفه؟

إن تطهير القلب ليس شرطاً أن يبلغه الإنسان كاملاً قبل العبادة؛ لو انتظر الكمال لما عبد أحد، وإنما يأتي إلى الله بأمراضه طالباً شفاءها، صادقاً في عدم الرضا عنها. الفرق كبير بين قلب مبتلى بالحق

يجاهده، وقلب يعتز بحقه ويغذيه؛ وبين عبد تضعف نفسه في ذنب وهو يكرهه، وآخر يحول الذنب إلى حق يدافع عنه.

وأول ما يُطهر به القلب صدق الاعتراف. لا يستطيع المرء أن يعالج ما يصير على تسميته بغير اسمه؛ فلا بد أن يقول: هذا حسد، لا مجرد نقد؛ وهذا كبر، لا كرامة؛ وهذه غيبة، لا نصيحة؛ وهذا تعلق مذل بالبشر، لا محبة بريئة؛ وهذا ظلم، لا حزم. حين تسترد الأشياء أسماءها الأخلاقية يبدأ الإصلاح، لأن النفس تتوقف عن الاحتيال على ضميرها.

ثم يأتي الدعاء والعمل: يستغفر لمن حسده، ويذكر محاسنه، ويمنع لسانه من الغيبة، ويرد المظلمة، ويخفض جناحه، ويقطع الطريق على أسباب الذنب. فالتطهير ليس شعوراً باطنياً وحده، بل قرارات ملهوسة تحرس القلب من إعادة إنتاج أمراضه.

من أمر السماء إلى مسؤولية الأرض

الملائكة تنزل ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، منفذة ما أمرها الله به، بينما يبقى الإنسان في الأرض مسؤولاً عما كلفه الله. لا يستطيع أن يطلب

من السماء أن تؤدي عنه واجبه؛ يدعو بالنصر، لكنه مطالب بالإعداد، ويسأل الرزق، لكنه مأمور بالسعي، ويرجو صلاح أبنائه، لكنه مسؤول عن تربيتهم، ويطلب نهضة الأمة، لكنه لا يعنى من إصلاح موضعه فيها.

ومن تشوهات التدين أن يتحول الدعاء إلى بديل من العمل، مع أن النبي ﷺ كان أكثر الناس دعاءً وأعظمهم أخذًا بالأسباب. خطط للهجرة، واختار الرفيق والدليل والطريق، وأعد للمعركة، واستشار أصحابه، ثم تعلق قلبه بالله. لم يكن التوكل تركاً للأسباب، بل تحريراً للقلب من عبادتها بعد إحكامها.

وفي ليلة القدر ينبغي للدعاء أن يولد مسؤولية: من دعا للمظلومين سأل نفسه عما يستطيع فعله لنصرتهم، ومن دعا للعلم بدأ في طلبه، ومن دعا لإصلاح أهله راجع طريقة معاملته لهم، ومن سأل الله كتاباً نافعاً أو مشروعاً صالحاً بدأ أول خطوة بعد الفجر. إن صدق الدعاء يظهر أحياناً في استعداد صاحبه لأن يكون جزءاً من الإجابة.

لا يملك الفرد إصلاح العالم كله، لكنه يملك ألا يزيد فسادُه؛ لا يملك رفع كل ظلم، لكنه يستطيع ألا يكون أداةً لظالم؛ لا يملك إغناء كل فقير، لكنه يستطيع أن يخفف عن واحد؛ لا يملك هداية القلوب، لكنه يستطيع أن يقول كلمةً صادقةً برحمة. والله لا يسأل العبد عما خرج عن وسعه، بل عما وضعه في يده ثم أهمله.

ليلة نتصاغر أمامها ضوضاء العالم

في الخارج تستمر الأخبار والصراعات والأسواق والمنافسات، لكن في ليلة القدر ينكشف للمؤمن أن هذا الضجيج ليس كل الحقيقة. بينما يتنازع البشر على قطع الأرض، تنزل الملائكة إليها بأمر ربهم؛ وبينما يتباهى أصحاب القوة بسلطانهم المؤقت، يجري في الكون أمر لا يملكون منه شيئاً؛ وبينما يظن المشهورون أن العالم يدور حول حضورهم، قد يكون أعظم أهل الأرض في تلك الساعة عبداً مجهولاً ساجداً لا يعرفه أحد.

وهذا الإدراك يحرر القلب من سطوة المشهد العام. ليس المقصود اعتزال قضايا الناس أو الهروب من المسؤولية، وإنما ألا يسمح المؤمن

للضجيج بأن يحدد له ميزان القيمة. يتابع العالم ويعمل فيه، لكن قلبه يعرف أن خبراً لا تنشره القنوات — توبة عبد، أو استجابة دعاء، أو نزول رحمة — قد يكون أعظم في ميزان الأبد من أحداث تصدرت العناوين.

إن الإعلام يمنحنا صورةً عما يلفت الانتباه، لا عما هو أعظم بالضرورة؛ والقرآن يعيد تدريب الانتباه على الموازين الصحيحة. فصرخة المظلوم مهمة ولو لم تصبح خبراً، ودمعة الخاشع عظيمة ولو لم تصور، والعمل الصالح حق ولو لم ينتشر اسمه. وما أكثر الحقائق التي تُهمل لأنها هادئة، وما أكثر التفاهات التي نتضخم لأنها صاخبة.

وليلة القدر تنتمي إلى عالم العظمة الهادئة؛ لا تحتاج إلى مهرجان بشري كي تكون خيراً من ألف شهر، ولا إلى شهادة الناس على تنزل الملائكة. فضلها مقرر عند الله، وهذه كفايتها. وكذلك ينبغي للعمل الصالح أن يستمد ثقته من علم الله به، لا من مقدار التصفيق حوله.

التنزل والسكينة

إن حركة الملائكة الكثيفة لا تصنع اضطراباً، بل تمهد للسلام الذي ستعلنه الآية التالية. وهذا يختلف عن حركة البشر التي كثيراً ما يصاحبها الصخب والتنافس وإثبات الذات؛ الملائكة تنزل في طاعة كاملة، فلا تراحم بينها على منزلة، ولا صراع على نسبة العمل، ولا خوف من أن يأخذ أحد فضل الآخر. إنهم عباد يعرف كل منهم أمره فيؤديه.

وكم يحتاج العمل الإنساني إلى شيء من هذا الصفاء: أن يعمل الناس للحق لا لاحتكار الفضل، وأن يتكاملوا بدل أن يتصارعوا على الظهور، وأن يفرح أحدهم بإتمام الخير ولو جرى على يد غيره. كثير من المشروعات النبيلة تنهار لا لضعف الفكرة، بل لأن النفوس تزاхمت على الملكية والاسم، فصار كل واحد يخاف نجاح أخيه أكثر من خوفه فشل الرسالة.

إن الإخلاص يمنح الحركة سكينتها؛ فمن عمل لله لم يحتج أن يخفض غيره كي يرتفع، ولم ينفق طاقته في مقارنة الأدوار، وعرف أن

الله لا يضيع عملاً وإن نُسبته الناس إلى سواه. أما من عمل لصورته، فإنه يبقى قلقاً؛ لأن صورته في أيدي الآخرين، يرفعونها ويخفضونها متى شأؤوا.

وليلة القدر تربي الإنسان على العمل الملائكي من جهة صفائه: افعل ما أمرت به، ودع علمه عند الله، ولا تجعل حاجتك إلى الاعتراف البشري تفسد عليك لذة الطاعة.

أمر الله بين الهيبة والرحمة

قد يوحي لفظ الأمر بالقوة والسلطان، وهو كذلك، لكنه في سياق السورة محاط بالرحمة: الأمر يصدر من الرب، وتحمله الملائكة، وينتهي المشهد بالسلام. فسلطان الله ليس كسلطان البشر الذين قد يأمرّون عن جهل أو هوى؛ أمره صادر عن علم كامل وحكمة كاملة ورحمة واسعة. وما يقضيه لعباده ليس عبثاً، وإن خفيت عنهم وجوه الحكمة.

إن الإنسان يقيس التدبير من نقطة صغيرة في الزمن؛ يرى اللحظة التي تؤلمه، ولا يرى السلسلة كلها، فيعجل بالحكم. ورب منع حسبه

حرماناً ثم تبين أنه حماية، ورب طريق أُغلق فأنقذه من شر، ورب تأخير ربّه حتى أصبح أهلاً للعطاء. وليس كل ألم دليل غضب، كما أن ليست كل نعمة مادية دليل رضا؛ فقد يتلى الله من يحب ليرفعه، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

لكن هذه المعاني لا ينبغي أن تستخدم لتبرير الظلم البشري أو إسكات المتألمين؛ فالمظلوم يحتاج أولاً إلى نصره ورحمة، لا إلى من يحول جرحه إلى محاضرة باردة عن الحكمة. الإيمان بالقدر لا يلغي التعاطف، بل يعمقه؛ لأننا نعلم أننا مسؤولون عن تخفيف ما نستطيع من الألم، وأن كون المصيبة قد وقعت بعلم الله لا يعفي من تسبب فيها باختياره.

وفي ليلة القدر يقف المؤمن بين هيبة الأمر وسعة الرحمة؛ يخاف لأنه لا يدري ما الذي ينتظره، ويرجو لأنه يعرف من هو ربه. وليس الرجاء أن يضمن لنفسه ما لم يضمنه الله، بل أن يحسن الظن به ويقرن الظن بالعمل، وأن يقول بقلبه: يا رب، لا أعلم ما كتبت لي، لكنني أعلم أنك أرحم بي من نفسي، فاجعل ما قدرته عوناً لي على رضاك، واختم لي بخير.

المشهد الذي يوقظ الأدب

لو استقر في قلب المؤمن أن الملائكة تنزل في هذه الليلة، لتغير أدبه فيها. سيستحي أن يملأها بلغو لا حاجة إليه، أو خصومة، أو تتبع لأخبار تسرق قلبه، أو رياء يلوث طاعته. سيخفض صوته الداخلي قبل صوته الظاهر، ويعرف أنه في حضرة موسم عظيم، وأن عليه أن يهئ في روحه مكاناً للسكينة.

والأدب ليس تكلف مشاعر لا يجدها، بل صدق المحاولة؛ قد يكون متعباً، وقد يثرد ذهنه، وقد يعجز عن البكاء، فلا يئأس. الله لا يطلب منه أن يمثل الخشوع، بل أن يطرق بابه بما هو عليه. ورب جفاف شعر به العبد كان أدعى إلى الصدق من دمة أعجبه؛ لأنه حين لا يجد لذة العبادة ويستمر فيها يثبت أنه يعبد الله لا شعوره.

ليست ليلة القدر حكراً على أصحاب التجارب الروحية العالية، بل باب للضعفاء والمثقلين والمذنبين؛ يأتي كل واحد بحاجته، ويقول: يا رب، ليس عندي ما أقدمه إلا فقري. وهذا الفقر نفسه باب عظيم؛

لأن الله يحب من عبده أن يعرف قدره، وألا يزاحم فضل ربه
بإعجابه بعمله.

حين يتصل القلب بالكون المطيع

تُخرج الآية الإنسان من وحدته الضيقة؛ فهو حين يسبح الله لا
يبدأ حركةً غريبةً في الكون، بل ينضم إلى موكب واسع يسبح فيه من
في السماوات والأرض. وحين يسجد لا يهين نفسه، بل يضعها في
موضعها الصحيح بين مخلوقات تعرف ربها. وحين يقوم ليلة القدر
يلتقي في طاعته مع ملائكة تنزل بأمر الله، فتغدو عبادته الشخصية
جزءًا من انسجام كوني كبير.

إن المعصية هي النشاز الحقيقي؛ فالشمس تجري بأمر ربها، والليل
والنهار يتعاقبان بسنته، والملائكة لا تعصيه، والمخلوقات خاضعة
لنواميسه، ثم يأتي الإنسان فيمنح حرية الاختيار ليكون خضوعه
أخلاقيًا واعيًا. فإذا أطاع انسجم مع حقيقة وجوده، وإذا عصى لم
يخرج من ملك الله، لكنه خرج على الغاية التي خلق لها.

ولهذا يشعر المؤمن في الطاعة براحة عميقة حتى لو شقت على جسده؛ لأنها تعيده إلى مركز فطرته. ويشعر بعد المعصية بوحشة ولو حقق بها لذةً عابرة، لأنها تفصله عن انسجامه الداخلي. وليلة القدر فرصة لاستعادة هذا الانسجام: أن يتوقف الإنسان عن الحرب مع فطرته، وأن يعترف بأن قلبه لن يجد سلامه في البعد عن خلقه.

من حركة الملائكة إلى شمول السلام

بدأت الآية بفعل يتدفق حركة: ﴿تَنَزَّلُ﴾، ثم ذكرت الملائكة والروح، وقررت أنهم لا ينزلون إلا بإذن ربهم، وأن نزولهم متصل بكل أمر شاء الله. وبعد هذه الحركة السماوية كلها، تبلغ السورة ذروتها الهادئة في كلمة واحدة تملأ الأفق:

﴿سَلَامٌ﴾.

وكأن كل ما سبق كان يمهد لها: نزل القرآن ليهدي الإنسان إلى السلام، وعظمت الليلة لتفتح له باب السلام، وتنزل الملائكة حاملةً من أمر الله ما يغمر الليلة بالسلام. فليست الطمأنينة فراغاً من

الأحداث، بل ثمة انتظامها تحت أمر الله؛ وليست السلامة أن يعرف الإنسان تفاصيل الغد، بل أن يعرف رب الغد.

وسوف تأخذنا الآية الأخيرة من سلام يملأ الليلة إلى فجر يعلن انتهاء زمنها وبقاء أثرها:

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

هناك سنرى كيف تصبح كلمة واحدة هويةً لليلة كاملة، وكيف يهبط السلام من السماء ليعيد ترتيب الإنسان من الداخل، ولماذا لا يكتمل إدراك ليلة القدر إلا إذا حمل العبد شيئاً من سلامها إلى نهاره، وإلى الناس، وإلى بقية عمره.

الفصل الخامس

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

من سلام الليلة إلى فجر الإنسان

تبلغ السورة ذروتها في كلمة واحدة، لكنها حين تنزل على القلب تبدو أوسع من اللغة كلها: ﴿سَلَامٌ﴾. بعد القرآن الذي نزل، والليلة التي عظمت، والزمن الذي اتسع حتى صار خيراً من ألف شهر، والملائكة والروح الذين تنزلوا بإذن ربهم من كل أمر، تأتي الخاتمة لا بصوت الصخب، ولا بمشهد القوة القاهرة، ولا بإعلان يملأ الأرض رهبةً، وإنما بكلمة السلام، كأن الغاية التي تصب فيها حركة السماء كلها هي أن تسترد الأرض طمأنينتها، وأن يخرج الإنسان من صراعه مع ربه ونفسه ومصيره إلى مقام الرضا والسكينة.

لم تقل الآية: فيها سلام، مع أن هذا معنى صحيح من معانيها، وإنما قالت: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾، فجعلت السلام خبرها وهويتها ووصفها الشامل؛ ليست الليلة ظرفاً يقع فيه السلام في بعض لحظاتها، بل

كأنها قد تحولت بجملة إلى سلام ممتد. سلام في نزول القرآن، وسلام في حضور الملائكة، وسلام في الرحمة التي تُفتح أبوابها، وسلام في الدعاء، وسلام في التوبة، وسلام في اتصال القلب بالله، وسلام من الشرور والآفات بما يشاء الله، حتى يطلع الفجر.

إنها ليست مجرد ليلة هادئة في حركة الكون المشهودة، فقد تمر ليلة القدر على أرض تموج فيها الحروب والآلام، وعلى بيت يبكي أهله مريضاً، وعلى سجين ينتظر الفرج، وعلى قلب جُفِعَ بمن يحب؛ ومع ذلك تظل الليلة سلاماً في حقيقتها. فالسلام القرآني أعمق من غياب الضجيج الخارجي، إنه طمأنينة تنبع من معرفة الله، وقدرة على الثبات في قلب العاصفة، ويقين بأن الألم — مهما طال — ليس سيد الوجود، وأن الكلمة الأخيرة ليست للموت ولا للظالم ولا للخسارة، بل لله الذي يبدأ منه الأمر وإليه يرجع.

السلام ليس صمت العالم

نخطئ حين نظن أن السلام هو أن تسير الحياة وفق رغباتنا، وألا نفقد شيئاً، وألا نمرض، وألا نخذلنا أحد، وألا نواجه مجهولاً؛ فتلك

صورة لا تتحقق كاملةً في الدنيا التي خُلقت دار ابتلاء. السلام الذي يمنحه الإيمان لا يلغي تقلبات الطريق، بل يمنعها من تحطيم مركز الإنسان؛ قد تهتز أطراف حياته، لكن قلبه يبقى موصولاً بالله، فيحزن دون أن يكفر بالمعنى، ويبكي دون أن يسقط في اليأس، ويتألم دون أن يتحول ألمه إلى ظلم للآخرين.

إن البحر لا يصبح آمناً لأن أمواجه توقفت كلها، بل لأن السفينة عرفت وجهتها وأحكمت صلتها بما يهديها. وكذلك القلب لا يجد السلام لأن الحياة قدمت له ضماناً ضد المصائب، بل لأنه عرف من يديرها، وأيقن أن ما عند الله لا يضيع، وأن كل جرح احتمله في طاعته محفوظ، وكل حق سلب منه سيعود في يوم لا تنفع فيه القوة أصحابها.

وقد كان النبي ﷺ أعرف الناس بربه، ومع ذلك عاش من الألم ما يزلزل الجبال: فقد الأحبة، وأُوذِي، وأُخرج من وطنه، وحُوصِر، وأُتهم، وشهد أصحابه يعذبون ويقتلون؛ لكنه لم يفقد سلام الوجهة. كان يحزن لأن الحزن من كمال بشريته، لكنه لا يضل في حزنه، ويخاف في موضع الخوف، لكنه لا يعبد خوفه، ويأخذ بالأسباب

كلها ثم يستقر قلبه عند الله. فالسكينة النبوية لم تكن برودةً أمام الألم، بل قوةً تحفظ الرسالة وسطه.

ومن هنا لا يكون السلام الإيماني تخديراً للإنسان عن واقعه، ولا دعوةً إلى قبول الظلم، بل مصدراً لقوة مواجهته. المطمئن إلى الله أقدر على قول الحق؛ لأنه لا يطلب أمانه النهائي من الظالم، وأقدر على الصبر؛ لأنه لا يختصر النتيجة في اللحظة، وأقدر على الرحمة؛ لأنه لا يحتاج إلى القسوة كي يثبت وجوده. السلام لا يصنع إنساناً منسحباً من الحياة، بل يصنع إنساناً لا يستطيع ضيغها أن يشتري ضميره.

لماذا جاءت ﴿سَلَامٌ﴾ نكرة؟

جاءت كلمة ﴿سَلَامٌ﴾ نكرةً للتعظيم والتفخيم، كأنها سلام لا تحيط العبارة بمقداره، ولا تستنفد اللغة مداه. سلام واسع متعدد الوجوه، يفيض على الليلة كلها، ويصل إلى كل قلب بحسب استعداده وصدقه. ورب عبد خرج من ليلة القدر بنصيب من السلام لا يستطيع وصفه؛ لم تتغير ظروفه كلها، لكن علاقته بها تغيرت، والفرق بين الحاليين أوسع مما يبدو.

قد يبقى الدين الذي عليه، لكن الفزع الذي كان يأكله يتحول إلى سعي متوكل؛ وقد يبقى المرض، لكن المريض يتوقف عن رؤية نفسه متروكاً؛ وقد تبقى ذكرى الفقد، لكن الحزن يخرج من طور الاعتراض إلى مقام الوفاء والصبر؛ وقد يبقى الطريق طويلاً، لكن اليقين يمنح الخطوة معناها. إن السلام ليس دائماً تغيير الواقع، بل قد يكون تغيير القلب الذي يحمل الواقع، حتى يصبح قادراً على عبور ما كان يظنه نهايةً له.

والسلام في أصله يحمل معنى السلامة والطمأنينة والتحية والدعاء بالأمن؛ وهو اسم من أسماء الله الحسنى: السلام، الكامل في ذاته وصفاته، المنزه عن كل نقص، ومنه يُطلب السلام، وبه تستقيم القلوب. فلا سلام بعيداً عنه إلا هدوء مؤقت يخفي تحته القلق، ولا طمأنينة تُبنى على معصيته إلا مهلة قصيرة قبل أن يستيقظ الفراغ.

يبحث الإنسان عن السلام في امتلاك الأشياء، فيجمعها ثم يخاف فقدها؛ ويبحث عنه في الناس، فيتعلق بهم ثم يرتعد من تغير قلوبهم؛ ويبحث عنه في القوة، فيكتشف أن كل قوي مهدد بأقوى منه؛ ويبحث عنه في الهرب من الأسئلة، فتعود إليه في ساعات الخلوة أشد

إِلْحَاحًا. أما حين يتصل بالسلام سبحانه، فإنه لا يفقد حاجته إلى الخلق ولا مسؤوليته في الحياة، لكنه يتوقف عن مطالبته بما لا يملكه إلا الله: الأمان المطلق، والبقاء، والعصمة من الخذلان، وضمان المصير.

سلام القرآن

بدأت السورة بنزول القرآن وانتهت بالسلام، وبين البداية والنهاية رابطة جوهريّة؛ فالقرآن هو الطريق إلى السلام. لم ينزل ليضيف إلى صراعات البشر صراعاً جديداً على الأهواء، بل ليحررهم من عبادة الأهواء التي تصنع الحروب في القلب والمجتمع، ويردهم إلى ميزان واحد لا يتبدل بتبدل الأقوياء.

السلام القرآني ليس سلاماً هشاً يقوم على إخفاء الباطل، ولا مصالحاً مزيفةً بين الحق والظلم، ولا سكوتاً عن العدوان حتى لا ينزعج المعتدي؛ بل يبدأ بإقامة الحق، لأن الظلم حرب ولو سكنت الأسلحة، وأكل حقوق الناس عنف ولو تم في مكاتب هادئة، وقهر

الروح عدوان ولو لم يترك جرحاً على الجسد. لا يبيّن القرآن السلام فوق جثث العدالة، وإنما يجعل العدل أحد أركانه.

لكن العدل نفسه في القرآن لا يتحول إلى ذريعة للانتقام المنفلت؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. فلا يجوز أن يدفعنا بغض الظالم إلى أن نتخلق بظلمه، ولا أن نطلب الحق بوسائل تهدم حقيقته. إن من أصعب امتحانات الأخلاق أن تبقى عادلاً مع من تكره، وأن تقاوم الباطل دون أن يسمح الباطل لنفسه بأن يولد داخلك.

وهذا هو السلام الذي يصنعه القرآن: ليس استسلاماً للشر، بل تحريراً من منطقته. يقاوم المؤمن الظالم دون أن يعبد الكراهية، ويحمي حقه دون أن يتجاوز حقوق غيره، ويغضب لله دون أن يجعل غضبه إلهاً يبيع له كل شيء. فإذا انتصر لم يسرف، وإذا قدر لم يتشف، وإذا عفا لم يكن عفوه ضعفاً، بل اختياراً أخلاقياً من موضع القدرة والحكمة.

أول دوائر السلام أن يسلم الإنسان لربه؛ لا بمعنى إلغاء السؤال أو إغلاق العقل، بل بمعنى أن يعرف أن الله أصدق قائلًا وأحكم حاكمًا وأرحم به من نفسه. معظم الاضطراب الروحي يبدأ حين يريد الإنسان أن يكون مؤمنًا بالله ما دام تدير الله موافقًا لتصوره، فإذا جاء القدر بخلاف اختياره خاصم الحكمة لأنه لم يفهمها.

السلام مع الله لا يعني ألا يحزن العبد أو يسأله تغيير الحال؛ فالأنبياء دعوا وبكوا وشكوا إليه، وإنما يعني ألا يتحول الألم إلى اتهام لله، ولا السؤال إلى اعتراض على كماله، ولا تأخر الإجابة إلى يأس من رحمته. يشكو المؤمن إلى الله لا من الله، ويقول كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. فالشكوى إليه عبادة وافتقار، أما الشكوى منه فتوحي بأن العبد نصب نفسه قاضياً على الحكمة الكاملة.

وقد يطول الطريق إلى هذا الرضا؛ فالقلوب ليست مفاتيح تُدار فتسكن فوراً، وبعض الجراح تحتاج زمناً حتى تلتئم. ولا ينبغي

للإنسان أن يكذب على نفسه ويدعي سكينَةً لا يجدها، بل يأتي اضطرابه إلى الله كما هو، ويقول: يا رب، قلبي ضعيف فعلمه الرضا، ونفسي خائفة فأنزل عليها السكينة. إن صدق الافتقار أحب من ادعاء مقام لم يبلغه صاحبه.

وليلة القدر فرصة للمصالحة مع الله بعد طول هرب؛ أن يتوقف العبد عن تفسير كل أمر ونهي كأنه تضيق عليه، وأن يرى في الشريعة طريقاً لحمايته من فوضى نفسه، وفي التوبة عودةً إلى وطنه الفطري، وفي السجود ارتفاعاً من عبودية الأشياء. حينئذ يفهم أن الله لم يمنعه ليحرمه، ولم يأمره ليشق عليه، وأنه سبحانه غني عن طاعته، وإنما تعود ثمرات الطاعة إلى العبد نفسه.

سلام مع النفس

داخل كل إنسان حروب لا يراها الآخرون: حرب بين صورته وحقيقته، وبين ما يؤمن به وما يفعله، وبين ماضٍ يؤلمه ومستقبل يخافه، وبين طموح يدفعه وعجز يثقله. وقد ينجح المرء في إخفاء هذه

المعارك خلف ابتسامة وحضور متماسك، لكنه يعرف في ساعات الليل مقدار الضجيج الذي يسكنه.

وليلة القدر تدعو النفس إلى سلام لا يقوم على إنكار عيوبها، بل على وضعها في طريق الإصلاح. فالقبول الصحيح للنفس ليس أن يبرر الإنسان كل ما فيها ويحوّل ضعفه إلى هوية مقدسة، وليس أن يحتقرها حتى يعجز عن النهوض؛ بل أن يعرف قدرها: مخلوقة مكرمة قابلة للخطأ والتوبة، تحمل استعداداً للخير والشر، ومسؤوليتها أن تزي نفسها مستعينةً بالله.

ومن أسباب فقد السلام الداخلي أن يعيش الإنسان أسير المقارنة؛ يقيس بداياته بنهايات غيره، وجرحه بواجهه حياتهم، ويظن أن ما يعرضه الناس هو حقيقتهم كلها. فينقلب ما لديه إلى عدم؛ مهما أُعطي رأى ما عند الآخرين، ومهما تقدم ظل يراقب من سبقه. والمقارنة إن كانت للتعلم قد تنفع، لكنها حين تصبح ميزاناً للكرامة تقتل الشكر، وتجعل الحياة سباقاً لا خط نهاية له.

وليلة القدر تعيده إلى ميزانه الخاص: الله لا يسألك لماذا لم تكن فلاناً، بل ماذا فعلت بما أعطاك؟ لا يطالبك بقدرات لم يضعها فيك، لكنه يسألك عن الوسع الذي أهملته، وعن النعمة التي لم تشكرها، وعن الطريق الذي عرفته ولم تمش فيه. حين يفهم الإنسان هذا، يتحرر من محاكاة حيوات لا تشبه رسالته، ويبدأ في بناء ما يستطيع بأدواته وظروفه.

والسلام مع النفس يتطلب كذلك مصالحةً ناجحةً مع الماضي. ليس المطلوب أن ينسى الإنسان آلامه أو يزين أخطائه، بل أن يعيد وضعها في موضعها الصحيح: خبرات تعلم منها، لا سجون يقيم فيها. الماضي معلم قاسٍ، لكن لا ينبغي أن يتحول إلى مالك للمستقبل؛ وما دام الإنسان قد تاب ورد الحقوق وأصلح ما استطاع، فعليه ألا يجعل نفسه أشد عليه من ربه.

إن بعض الناس يطلب العفو من الله بلسانه، ثم يرفض أن يصدق إمكان العفو بقلبه، فيظل يعاقب نفسه على خطيئة تاب منها؛ وكأن استمرار احتقاره لذاته نوع من الوفاء للحق. لكنه قد يكون حيلةً أخرى من حيل النفس تبقىها متمركزةً حول ذاتها؛ والتوبة الحقيقية لا تعني

أن تبقى محققاً في ذنبك إلى الأبد، بل أن تنظر بعده إلى سعة رحمة الله، ثم تمضي عاملاً متواضعاً.

سلام مع الناس

لا يمكن لمن يطلب سلام ليلة القدر أن يظل مصنفاً للخصومة في حياة الآخرين. فالعبادة التي تجمع القلب على الله ينبغي أن تظهر رفقاً وعدلاً وحفظاً للسان. ورب قائم طويل القيام، لكن إنساناً قريباً منه يتأذى بقسوته؛ ورب تالٍ للقرآن، لكن كلماته في المجالس تمزق أعراض الناس. وهنا تظهر الفجوة بين الصوت القرآني والخلق القرآني.

إن سلام الإنسان مع الناس لا يعني أن يصادق الجميع، ولا أن يلغي الحدود، ولا أن يسمح لمن يؤذيه بتكرار الأذى. قد يكون الابتعاد سلاماً، وقد تكون المواجهة الهادئة سلاماً، وقد يكون طلب الحق سلاماً؛ لأن العلاقة التي تقوم على استباحة طرف لآخر ليست سلاماً ولو غاب الشجار. المقصود ألا يسكن الحقد قلبه حتى يصبح

الطرف الآخر مالاً لحياته من حيث لا يشعر، وألا يتجاوز العدل بحجة الألم.

ثمة أشخاص قد لا تستطيع إعادتهم إلى حياتك، لكنك تستطيع إخراجهم من مركز غضبك؛ لا تثق بهم بعد التجربة، ولكنك لا تجعل خيانتهم تعريفاً للعالم كله؛ تحفظ حقك، لكنك لا تستهلك كل يوم في محاکمتهم داخل رأسك. العفو أحياناً ليس إعادة العلاقة، بل تحرير القلب من استمرار الحدث بعد انتهائه.

وفي ليلة القدر، يسأل الإنسان ربه العفو، فيتذكر حاجته إلى مراجعة مواضع القطيعة. لعل خصومة بدأت من سوء فهم ثم غلبتها الكبرياء، ولعل كلمة اعتذار واحدة تستطيع أن تنقذ علاقةً كاملة، لكن كل طرف ينتظر أن يبدأ الآخر. وما قيمة أن يرفع المرء يديه قائلاً: «اعف عني»، ثم يراه الله مصراً على عدم الاعتذار عن خطأ يعرفه؟

إن الاعتذار لا ينتقص الكرامة؛ الذي ينتقصها هو أن نعرف أننا ظلمنا ثم نحكي صورتنا بالكذب. والإنسان الكبير لا يصغر حين يقول:

أخطأت، بل يتخلص من عبء تمثيل العصمة. وليس الاعتذار ألفاظاً غامضةً من قبيل: إن كنت قد فهمت كلامي خطأً، بل اعتراف واضح بما وقع، وتحمل لأثره، ومحاولة لإصلاحه.

سلام الأسرة

أقرب مواضع اختبار السلام هو البيت؛ فهناك تسقط الأقنعة، وتظهر الأخلاق بلا إعداد. يستطيع الإنسان أن يبدو لطيفاً لساعات أمام الغرباء، لكنه في بيته يكشف عن حقيقة صبره وعدله. وكَم من شخص يوزع الابتسامات في الخارج ثم يعود إلى أهله مثقلاً، فيمنحهم بقايا نفسه وغضبه، كأن القرابة تسقط حق الرفق.

وليلة القدر لا ينبغي أن تُفهم بوصفها عبادة فردية منفصلة عن البيت؛ فالذي يرجو قبول قيامه عليه أن ينظر في حقوق أهله: هل يحملهم ما لا يطيقون؟ هل يستعمل الدين للسيطرة بدل الهداية؟ هل يصغي إليهم؟ هل يعتذر إذا أخطأ؟ هل يجعل البيت موضع أمن أم مكاناً يمشي فيه الضعفاء على أطراف أصابعهم خشية غضبه؟

السلام الأسري ليس غياب الاختلاف؛ فلا بيت بلا تباین في الطباع والرغبات، وإنما هو وجود رحمة تدير الاختلاف، وعدل يمنع الأقوى من استباحة الأضعف، ولغة لا تحوّل كل خطأ إلى إهانة للشخص. يستطيع المرء أن يرفض الفعل دون أن يسحق صاحبه، وأن يصحح الخطأ دون أن يستدعي تاريخ الإنسان كله ليدينه.

ومن سلام البيت ألا تصبح العبادة سبباً للتوتر؛ فمن قام الليل ثم ضاق بأصوات الأطفال أو احتقر من عجز عن قدر عبادته، فقد أدخل إلى طاعته شيئاً من عجب النفس. المؤمن يدعو أهله برفق، ويعينهم، ويراعي طاقتهم، ولا يجعل نفسه قاضياً على سرائرهم. إنه يرجو لنفسه القبول، ولذلك يخاف أن يفسد عمله بالكبر على من عمل أقل منه.

سلام المجتمع والعدل

لا يكتمل معنى السلام إذا حُصر في شعور فردي داخل القلب بينما يقوم المجتمع على الظلم. فالقرآن يخاطب الإنسان فرداً وجماعةً، ويبني السلام على حفظ الدماء والأموال والأعراض، وعلى الوفاء

بالعقود، وإقامة العدل، ونصرة المظلوم. وكل نظام يطلب الهدوء دون إزالة أسباب القهر لا يصنع سلاماً، بل يؤجل الانفجار.

قد يسكت المقهور لأنه عاجز، لكن سكوته ليس رضاً وقد تبدو المدينة مستقرةً لأن الخائفين لا يستطيعون الكلام، لكن الخوف المنظم ليس أمناً. السلام الحقيقي لا يحتاج إلى سحق الأسئلة، بل إلى عدالة تجعل الإنسان يشعر أن كرامته مصونة، وأن القانون لا يتغير بحسب قوة الخصم.

ولذلك لا يجوز أن تتحول لغة السلام إلى وسيلة لإدانة المظلوم حين يطالب بحقه، بينما يُترك الظالم يواصل ظلمه. القرآن يأمر بالإصلاح بين الناس، لكنه يربط الإصلاح بالعدل؛ لأن المصالحة التي تساوي بين الجاني والمجني عليه تضيف ظلماً جديداً إلى الجرح الأول. لا بد من تسمية الظلم، ورده، ثم فتح باب العفو إن اختاره صاحبه من غير إكراه.

ومع هذا، يظل الهدف القرآني تجاوز دورة الثأر التي تجعل كل مظلوم ظالماً جديداً. العدالة تسترد الحق وتضع الحد، أما الانتقام

المنفلت فيريد إدامة الألم. ومن أعظم علامات سلام القلب أن يطلب الإنسان عدلاً لا تشفياً، وإصلاحاً لا إذلالاً، وأن يخاف من أن يتجاوز في لحظة القوة ما كان ينكره في لحظة الضعف.

السلام مع القدر

قال تعالى قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِكُمْ ذَلِكُمْ سُبُلَ الَّذِينَ قَدَرُوا وَفَعَلُوا حَظًّا مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ هُدُوا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، ثم قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾؛ فكأن السلام ثمرة معرفة أن الأمر كله لله. أكثر ما يقلق الإنسان هو وهم السيطرة الكاملة؛ يريد أن يضمن الغد، ويعرف نتائج كل خطوة، ويحجي أحبابه من كل احتمال، ثم يكتشف أن الحياة أوسع من قدرته، فيتحول حرصه إلى خوف مستمر.

الإيمان لا يطلب منه ترك التخطيط، بل ترك توهم الألوهية. يخطط لأنه مسؤول، ويتوكل لأنه عبد؛ يحجي أبناءه بما يستطيع، ثم يعلم أن حافظهم الله؛ يعالج مرضه، ثم يعلم أن الشفاء بيده؛ يدبر رزقه، ثم لا يبيع مبادئه خوفاً من الفقر. بهذا التوازن ينجو من طرفي العجز والغرور: فلا يقعد باسم التوكل، ولا ينهار إذا عجزت الأسباب.

والسلام مع القدر لا يُنال دفعةً واحدةً في كل المواقف؛ قد يطمئن الإنسان في شأن ويضطرب في آخر، ويحتاج كلها اشتد خوفه إلى أن يعيد قلبه إلى الأصل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾. تأمل قوله: ﴿لَنَا﴾ لا علينا؛ حتى ما يؤلم المؤمن قد يكون له في مآله، بما يثره من أجر وتطهير وتربية، إذا تلقاه بالصبر والاحتساب.

ولا يعني ذلك أن كل بلاء تظهر حكمته في الدنيا؛ بعض الأسئلة تبقى مفتوحةً حتى الآخرة، وهناك فقط تكتمل الصورة، ويعلم الإنسان أن عدل الله لم يضع شيئاً. الإيمان بالآخرة جزء أساسي من السلام؛ فمن حصر القصة في الدنيا ستبدو أمامه نهايات كثيرة ناقصة: ظالم مات بلا عقوبة، ومظلوم رحل بلا إنصاف، ومحسن لم ير ثمرة إحسانه. أما الآخرة فتمنع اللحظة من ادعاء أنها الحكم الأخير.

ليلة آمنة من الشيطان

ذكر المفسرون في معنى السلام أن الليلة سلام وخير، وأن الشيطان لا يستطيع فيها من الشر ما يستطيعه في غيرها، لما يغشاها من

الرحمة وتنزل الملائكة. وليس معنى ذلك أن إرادة الإنسان تُسلب أو أن كل معصية تستحيل، لكنه موسم تضيق فيه سبل الشر، وتوسع دواعي الطاعة، ويجد القلب عوناً خاصاً على الرجوع.

والشيطان لا يدخل على الإنسان دائماً من باب المعصية الصريحة؛ قد يفسد عليه ليلة القدر بالعجب بعبادته، أو بالنزاع حول تعيينها، أو باحتقار من نام لعذر، أو بالانشغال بتصوير الطاعة وعرضها. ورب عبادة نقلته من ذنب ظاهر إلى مرض باطن أخطر، حين جعلته يرى نفسه أفضل من الناس.

ومن مكائد النفس أن تقارن إخلاصها بظاهر تقصير الآخرين؛ وهو قياس فاسد، لأن الإنسان يعرف من نفسه ما لا يعرفه عن غيره، وقد يكون للعاجز عذر أو عمل خفي لا يراه. والمؤمن الصادق كلما ازداد عملاً ازداد خوفاً من عدم القبول، لا احتقاراً للمقصرين؛ يرى توفيق الله عليه، لا تفوق ذاته عليهم.

ولذلك فإن سلام الليلة يقتضي أن يسلم الإنسان من حرب إعجابه بنفسه، وأن يقول بعد العبادة كما يقول بعد الصلاة: أستغفر الله؛ لأنه

يُعلم أن طاعته نفسها تحتاج إلى ستر ما دخلها من نقص. لا يغادر الليل حاملاً شهادةً لنفسه، بل رجاءً في ربه.

﴿هِيَ﴾: الليلة كلها سلام ﴿﴾

توسط الضمير ﴿هِيَ﴾ بين السلام والغاية: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، وفي هذا التركيب تأكيد لاتحاد الليلة بالسلام، حتى كأنك إذا سألت: ما ليلة القدر؟ قيل لك: هي سلام. لقد بدأ تعريفها بأنها ظرف إنزال القرآن، ثم بأنها خير من ألف شهر، ثم بأنها زمن تنزل الملائكة، وأخيراً خلصت طبيعتها في السلام.

وهذه البنية تبين أن السلام القرآني لا يولد من فراغ، بل له أسبابه: يبدأ بالوحي؛ لأن الإنسان لا يهتدي إلى سلامه الكامل بعيداً عن ربه، ثم بإدراك قيمة الوقت حتى لا يبدده في الحروب الصغيرة، ثم بوعي عالم الغيب والتدبير حتى يتحرر من وهم العزلة والفوضى، ثم يبلغ السكينة. من أراد السلام دون حقيقة، طلب راحة مؤقتة؛ ومن أراد بلا توبة، أراد ثمرةً بلا جذر؛ ومن أراد بلا عدل، أراد صمت المظلومين لا سلامهم.

السلام يبدأ حين تستقيم علاقة الإنسان بالمصدر: الله؛ ثم ينساب في دوائر حياته. فإذا كان في قلبه صلح مع ربه، استطاع أن يراجع نفسه دون أن يتحطم، وأن يحب الناس دون أن يؤلّهمهم، وأن يعمل في الدنيا دون أن يعبدها، وأن يستقبل الموت دون أن يراه عدماً.

حَتَّى: للسلام زمن ولأثره امتداد ﴿

قال تعالى: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ فالليلة تمتد بسلامها وبركتها إلى طلوع الفجر، وعند الفجر ينتهي زمنها المخصوص. وهذا يذكر الإنسان بأن المواسم مهما عظمت محدودة، وأن الفرص لها أبواب تفتح ثم تغلق، ومن الحكمة ألا يعاملها كأنها باقية إلى الأبد.

تشرق الحياة كثيراً بفرص لا ندرك قيمتها إلا بعد انقضائها: أبوان كان يمكن أن نبرهما، وصديق كان ينتظر كلمة، وصحة ظنناها عادية، ووقت فراغ بددناه، وباب توبة سوفنا طريقه. إن كلمة ﴿حَتَّى﴾ تضع حداً زمنياً أمام العين: سلام الليلة ممتد، لكنه سينتهي عند الفجر؛ فماذا ستفعل قبل أن يطلع؟

ليست العبادة قائمةً على الذعر من الساعة، لكنها تستفيد من وعي المحدودية؛ فالوقت حين يبدو بلا نهاية يفقد قيمته، وحين نعرف أنه ينقضي ننتبه. لذلك كان ذكر الموت من أعظم ما يعيد ترتيب الحياة، لا ليحوّلها إلى حزن دائم، بل ليحررها من التفاهة. من عرف أن ليلته ستنتهي صلى قبل الفجر، ومن عرف أن عمره سينتهي صالح قبل الرحيل.

وليلة القدر صورة مكثفة للعمر كله: تدخل في غروب، وتمضي سريعةً، ثم يطلع فجرها سواء أحسن الإنسان فيها أم أساء. وكذلك العمر يبدأ ثم يسير دون توقف، ويأتي أجله دون أن ينتظر اكتمال مشروعاتنا والفرق كله فيما ملأنا به المسافة بين الغروب والفجر، وبين الميلاد والموت.

مطلع الفجر: ولادة الضوء

لم تقل الآية: حتى الفجر فقط، بل قالت: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، فاستحضرت لحظة طلوعه وانبثاقه، كأننا نرى أول خيط من الضوء يشق ستر الليل. والمطلع يحمل معنى زمان الطلوع ومكانه أو مصدره؛

فتتسع الصورة للحظة التحول التي ينحسر فيها الظلام ويعلن الضوء بدايته.

والفجر في بنية السورة ليس مجرد توقيت لنهاية الليلة، بل صورة تناسب الرحلة كلها. بدأت السورة بإنزال النور في الليل، وانتهت بطلوع النور من أفق الأرض؛ فكأن ما نزل من السماء في البدء أنجب فجراً في اختتام. نزل القرآن، وقام المؤمنون، وتنزلت الملائكة، وفاض السلام؛ ثم آن للفجر أن يظهر، لا في السماء وحدها، بل في قلب كل من عاش الليلة حقاً.

ما أروع التناسق بين نزول القرآن وطلوع الفجر: القرآن نور ينزل، والفجر نور يطلع، والإنسان يقف بين النورين؛ يتلقى من السماء هدايةً، ثم ينبغي أن يظهر أثرها في الأرض عملاً. وإذا بقي الوحي في دائرة التلاوة ولم يتحول إلى خلق وموقف، فقد تلقى الإنسان النور لكنه لم يسمح لفجره أن يطلع.

إن الفجر لا يبدد الليل دفعةً واحدة؛ يبدأ خيطاً رقيقاً، ثم يتسع حتى يغمر الأفق. وكذلك التحولات الحقيقية في النفس قد تبدأ

صغيرة: قراراً بالمحافظة على صلاة، أو صفحةً يوميةً من القرآن، أو اعتذاراً، أو إغلاق باب معصية. لا ينبغي احتقار البدايات لأنها رقيقة؛ فالنهار كله يبدأ بخيط من الضوء، والنهر العظيم قد يبدأ من عين صغيرة، والكتاب الكبير يبدأ بسطر، والطريق الطويل يبدأ بخطوة.

المهم أن تكون البداية صحيحةً وأن تُحرس من الانطفاء. كثير من الناس يريدون أن يتحولوا دفعةً واحدة، فيحملون أنفسهم من الأعمال ما لا يطيقون، ثم يسقطون ويظنون أنهم عجزوا عن الإصلاح. أما الفجر فيعلمهم التدرج: ابدأ بما تستطيع، اثبت عليه، ودع النور يتسع. لا تطلب من أول خطوة أن تكون نهاية الطريق، لكن لا تجعل صغرها عذراً للتوقف.

ماذا بعد مطلع الفجر؟

حين ينتهي وقت ليلة القدر، يبدأ امتحانها الحقيقي. ففي الليل يسهل التأثر وسط أجواء العبادة، أما بعد الفجر فتعود الحياة بمطالبها واحتكاكاتها، وهناك يتبين هل كان السلام حالةً عابرةً أم بذرةً لمسار

جديد. من بكى في الليل ثم ظلم في الصباح لم يحمل من الليلة معناها، ومن قرأ القرآن ثم خان الأمانة لم يسمح للنور أن يبلغ معاملاته.

إن الله لا يريد منا عبادةً ليليين فقط، بل بشراً يحملون هداية الليل إلى النهار؛ يذهب أحدهم إلى عمله فيكون أكثر صدقاً، ويعود إلى بيته فيكون أكثر رفقاً، ويختلف مع خصمه فيكون أكثر عدلاً، ويمتلك القوة فيكون أقل ظلماً. هذه هي العلامة الأخلاقية للتحول: أن يصبح الإنسان مصدر سلام فيما حوله.

ليس شرطاً أن يخرج من ليلة القدر بلا ضعف؛ سيبقى بشراً يخطئ ويتعب، لكن ينبغي أن يخرج أصدق في الرجوع، وأقل إصراراً على الخطأ، وأسرع إلى الاعتذار. الاستقامة لا تعني ألا يتعثر الإنسان، بل ألا يجعل العثرة موطناً، وأن يعرف الطريق كلها ابتعد.

وقد تكون المحافظة على أثر الليلة أشق من قيامها؛ لأن الموسم يحمل الإنسان بحماسة الجماعة وفضل الزمن، ثم ينفرد بعده بعاداته. لذلك يحتاج إلى نظام يحرس المعنى: صحبة صالحة، وورد ثابت، وبيئة تقلل أسباب الذنب، ومحاسبة رحيمة للنفس، ودعاء متكرر بالثبات. النية

وحدها بداية، لكنها تحتاج إلى أبواب عملية حتى لا تذوب في ضغط الأيام.

سلام لا ينتهي بانتهاء الليل

مع أن سلام الليلة المخصوص يمتد حتى مطلع الفجر، فإن أثره يستطيع أن يرافق المؤمن بعد الفجر. ينتهي زمن الموسم، لكن ما زرعه يبقى؛ كما تغيب السحابة ويبقى أثر المطر في الأرض، وتنطفئ لحظة البرق ويبقى الطريق الذي كشفته في العين. وقد تكون ليلة القدر قصيرة، لكن الإنسان يظل يعود إلى عهد قطعه فيها كلما ضعف.

ليس المقصود أن يعيش طوال العام في الحالة الشعورية نفسها؛ فالمشاعر تتبدل، لكن العهد يستطيع أن يستمر. في الأيام التي يجد فيها حلاوة الطاعة يعبد الله شكرًا، وفي أيام الجفاف يعبد وفاءً، ولا يجعل شعوره معيارًا وحيداً لصدق العمل. أحياناً يكون الثبات في غياب اللذة أصدق دليل على العبودية؛ لأنه يكشف أن الإنسان لا يعبد الإحساس الجميل، بل يعبد الله.

وسلام الليلة يمكن أن يتحول إلى منهج يومي:

أن يبدأ يومه بذكر الله قبل أن يبدأ ضجيج العالم، وأن يحرس لسانه من إشعال الحرائق، وأن يترك في جدولهِ موضعاً للقرآن، وأن يتعلم التفريق بين المعركة التي تستحق موقفاً والمعركة التي يصنعها الكبر، وأن ينام كل ليلة بقلب أقل ازدحاماً بالضغائن. ليست هذه أعمالاً خارقة، لكنها إذا استمرت صنعت إنساناً مختلفاً.

السلام والكآبة

وكل صاحب كلمة له نصيب خاص من مسؤولية السلام، فالكلمة قد تكون باباً للنور، وقد تكون شرارةً في مستودع الألم. يستطيع الكاتب أن يكشف الظلم دون أن يفقد عدله، وينتقد الفكرة دون أن يهدر كرامة الإنسان، ويوقظ الوعي دون أن يملأ النفوس باليأس. وليس السلام في الكآبة تجنب القضايا الصعبة، بل تناولها بضمير لا يجعل الحقيقة مطيةً للتشفي.

الكلمة التي تولد من ضجيج الأنا تضيف إلى العالم ضجيجاً، أما التي تمر أولاً على محراب الصدق فقد تجمع بين القوة والرحمة. والقرآن،

الذي نزل في ليلة السلام، لم يجامل الباطل، لكنه واجهه بميزان لا يظلم؛ كشف النفاق والكفر والطغيان، وفي الوقت نفسه ظل يفتح باب التوبة، ويفرق بين الحكم على الفعل وإغلاق مصير الإنسان الذي قد يهتدي.

ولعل الكاتب في ليلة القدر أحوج إلى أن يسأل: أي أثر تركه كلماتي في الناس؟ هل تمنحهم بصيرةً أم تكتفي بإثارة انفعالاتهم؟ هل تقرهم من الحقيقة أم تجعلهم متعلقين بصورة الكاتب؟ هل أكتب لأنور موضعاً مظلماً، أم لأثبت أنني أكثر قدرةً على وصف الظلام؟ إن الكلمة أمانة، وقد يمتد أثرها بعد صاحبها؛ فطوبى لمن جعلها سلاماً يحمل الحق، لا مخدراً يخفيه ولا سيفاً يجرح بلا ضرورة.

سلام الأمة يبدأ من داخل الإنسان

لا يمكن أن نحلم بأمة يسودها السلام والعدل ونحن نعمل في داخلنا بذور الاستبداد نفسها التي ننكرها في حكامها ومؤسساتها. المجتمع ليس كائناً منفصلاً عن أفرادهِ؛ وما يظهر في قته كثيراً ما تكون له صور صغيرة في البيوت والجماعات والعلاقات. من يتحكر

القرار في أسرته، ويخفق الرأي المخالف، ويعاقب النقد، ثم يلعن الاستبداد السياسي، يحتاج إلى أن يرى الصلة بين المستويين.

وليلة القدر تبدأ إصلاح الأمة من القلب، لا لأن الإصلاح الفردي يغني عن إصلاح البنى والمؤسسات، بل لأن المؤسسات العادلة تحتاج إلى إنسان يحترم العدل حين يكون ضد مصلحته. يمكن كتابة أفضل القوانين، لكن من لم يتغير ضميره سيبحث عن منفذ للتحايل عليها؛ ويمكن رفع شعارات الشورى، لكن النفس المتضخمة ستعيد إنتاج الفردية تحت أسماء جديدة.

السلام الحضاري ليس خطبةً، بل شبكة من القيم: قضاء عادل، وحقوق مصونة، وعلم محرر، واقتصاد لا يأكل الضعفاء، وسلطة تُسأل ولا تُقدس، ومجتمع يتسع لاختلاف الاجتهاد دون أن يحوله إلى عداوة. وكل واحدة من هذه تبدأ من المعنى القرآني للإنسان بوصفه مكرماً مسؤولاً أمام الله.

لقد نزل القرآن في ليلة القدر ليخرج أمة للناس، لا لتعيش داخل طقوسها منعزلة عن آلام العالم. ومن وفائها لهذه الليلة أن تكون حاملةً

للسلام القائم على الحق، وأن تجعل حضورها رحمةً وعدلاً ومعرفةً، لا عبثاً على البشر. فالأمة التي نتلو ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ ثم تعجز عن صناعة الأمان للضعيف في داخلها تحتاج إلى مراجعة المسافة بين تلاوتها وشهادتها الحضارية.

الفجر الداخلي

لكل إنسان ليل داخلي لا يعرف امتداده سواء؛ وقد يطول حتى يظن أن الفجر لن يأتي. لكنه حين يقرأ: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، يتعلم أن الليل مهما امتد يحمل في بنيته وعد النهاية. ليس هناك ليل أبدي في الدنيا، ولا حزن يبقى على صورته، ولا قوة تستقر لأحد. تتبدل الأحوال لأن الثبات الكامل ليس لهذه الأرض.

الفجر الداخلي لا يعني أن تُحل كل المشكلات، بل أن يستعيد الإنسان القدرة على رؤيتها في الضوء؛ فيتوقف عن تضخيم بعضها، ويعرف ما يستطيع تغييره وما ينبغي أن يصبر عليه، ويميز بين ذنب يحتاج إلى توبة وابتلاء يحتاج إلى صبر وقرار يحتاج إلى شجاعة. الظلمة تخط الأشياء، أما النور فيعطي كل شيء اسمه ومكانه.

وقد يطلع الفجر في قلب الإنسان قبل أن يطلع في واقعه؛ يسكن وهو لا يزال محاصراً، ويرجو وهو لم ير بعد أسباب الفرج، ويستعيد كرامته الداخلية قبل أن يسترد حقه الخارجي. وهذا ليس وهماً؛ فالتحرر يبدأ حين يفشل السجن الخارجي في امتلاك الروح، وحين يعجز الظالم عن إجبار المظلوم على تبني روايته عن نفسه.

إن يوسف عليه السلام كان كريم الروح في السجن قبل أن يصبح عزيز مصر، وكان النصر قد بدأ في داخله قبل أن يظهر في الواقع؛ لأنه لم يسمح للظلم أن يحوله إلى ظالم، ولا للفتنة أن تنتزع عفته، ولا للسجن أن يسلب رسالته. وهكذا يكون الفجر أولاً موقفاً من الظلام، ثم يصبح بإذن الله تحولاً في الأفق.

السورة التي تبدأ بالنزول وتنتهي بالطلوع

تتألف سورة القدر من حركة بديعة: في بدايتها إنزال القرآن، وفي وسطها تنزل الملائكة والروح، وفي نهايتها مطلع الفجر. ينزل من السماء كلام الله، ثم تنزل ملائكته، ثم يطلع من الأرض نور

الصباح؛ فكأن الأرض حين تستقبل ما نزل إليها تستطيع أن تلد
فجرها.

وهذه هندسة روحية كاملة: الهداية تأتي من الله، والاستجابة تقع
من الإنسان، والثمرة تظهر في الحياة. لا يستطيع البشر أن يصنعوا
وحياً، لكنهم يستطيعون أن يحسنوا استقباله؛ ولا يخلقون النور من
العدم، لكنهم يستطيعون أن يفتحوا له نوافذ قلوبهم. ومشكلتهم ليست
في غياب القرآن، فهو بين أيديهم، بل في الحجب التي صنعوها بين
ألفاظه وواقعهم.

لقد نزل القرآن ليصنع فجراً في العقل، فيحرره من الخرافة والتقليد
الأعمى؛ وفجراً في الضمير، فيجعله مسؤولاً أمام الله لا أمام الجماعة
وحدها؛ وفجراً في المجتمع، فيقيم العدل ويحفظ الحقوق؛ وفجراً في
التاريخ، فيخرج الإنسان من الدوران في العصبية إلى أفق الرسالة.
وكما ابتعد المسلمون عن هذه الفجور عاد الليل يتكاثر، ولو بقيت
المصاحف كثيرةً في بيوتهم.

كيف نعرف أن الفجر قد طلع فينا؟

لا يقاس الفجر الداخلي بكثرة الحديث عن ليلة القدر، بل بثمراتها. ومن أماراته أن يصبح القرآن بعد الليلة أقرب إلى القرار، وأن يصير الذنب الذي كان مألوفاً ثقیلاً على القلب، وأن تتسع الرحمة في نظرة الإنسان إلى الضعفاء، وأن يخف تعلقه ببناء الخلق، وأن يزداد شجاعته في رد الحقوق.

إذا خرج من الليلة أكثر قسوة على الناس، وأكثر عجباً بنفسه، وأشد انشغالاً بمن قام ومن نام، فقد حجب الأنا عنه جانباً من نورها. فالعبادة الصادقة تكسر الاستعلاء؛ من وقف طويلاً يقول: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» ينبغي أن يصبح أقل رغبة في توزيع الأحكام على مصائر الآخرين.

ومن أمارات الفجر أن يتبدل سؤال الإنسان من: ماذا أخذت من الله؟ إلى: ماذا يريد الله مني؟ فالعلاقة الناجحة بالله لا تختصره في مصدر لتحقيق المطالب، بل تعرفه رباً يُعبد ويُحِب ويُطاع. يدعو العبد

بِحاجاته كلها، لكنه يعرف أن أعظم الإجابات أن يستخدمه الله في خير، وأن يمنحه قلباً سليماً ولو لم يعطه كل صورة تخيلها للسعادة.

ومن أماراته كذلك أن يعود المرء إلى الحياة لا هارباً منها، بل أصلب روحاً في مواجهتها؛ يعمل، ويكتب، ويصلح، ويحب، ويقاوم الظلم، ويستمتع بالمباح، لكنه يفعل ذلك كله من مركز أكثر اتصالاً بالله. فالتجربة الروحية التي تعزل الإنسان عن واجباته ناقصة، والليل الذي لا يرسل ضوءه إلى النهار لم يؤد رسالته كاملةً.

آخر الليل وأول الطريق

عند ﴿مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ تنتهي السورة، لكن رحلة الإنسان تبدأ. انتهت الكلمات الخمس، ولم تنته الأسئلة التي زرعتها: ما موضع القرآن في حياتي؟ ما قدر الزمن عندي؟ هل أعيش عمري أم أتركه يمر؟ هل أومن بالغيب بما يحررني من أسر المادة؟ هل أطلب السلام من مصدره؟ وهل سيعرف من حولي أنني قمت ليلة القدر من خلال أخلاقي بعد انتهائها؟

إن القرآن لا يروي لنا ليلةً لنظّل تتأملها من الخارج، بل يدعوننا إلى دخول معناها. نحن لا نملك أن نرى الملائكة، ولا أن نخطط بأسرار القدر، لكننا نملك أن نقوم، وندعو، ونتوب، ونقرأ، ونزد المظالم، ونفتح في قلوبنا موضعاً للسلام. وما وراء ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء.

تطلع الشمس على الجميع بعد ليلة القدر، لكن ليس كل من رأى الفجر قد وُلد بفجره الداخلي. قد يخرج أحدهم كما دخل، وقد يخرج آخر وقد أُعيد ترتيب مصيره في سر لا يعلمه إلا الله. الفرق ليس في طول الليل، بل في صدق القلب؛ وليس في كثرة الحركة وحدها، بل فيمن كانت الحركة له.

هكذا تُسلمنا الآية الأخيرة إلى عتبة جديدة: ينتهي الليل، وتبقى الأمانة. لقد تنزل النور، فهل سنمشي به؟ وفاض السلام، فهل سنحمله إلى عالم تمزقه الخصومات؟ وطلع الفجر، فهل نسمح لعاداتنا القديمة أن تعيدنا إلى الليل؟

إن ليلة القدر لا تريد أن تكون ذكرى مضيئة في عام مظلم، بل بداية نور يمتد. ومن عرف أن ليلة واحدة تستطيع أن تكون خيراً من ألف شهر، عرف أن لحظة الصدق تستطيع أن تفتح ما أغلقته أعوام الغفلة، وأن الله قادر على أن يخرج من أضيق منافذ العمر فجراً واسعاً.

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ سلام على القلب حين يعود، وسلام على الروح حين تتحرر من حربها، وسلام على التائبين الذين أدركوا أن أبواب الرحمة أوسع من خطاياهم، وسلام على القائمين الذين لم يرهم أحد وراهم الله، وسلام على المجوعين الذين دخلوا الليلة حاملين أحزانهم وخرجوا يحملون معها يقيناً، وسلام على كل إنسان أدرك أن الفجر ليس ضوءاً يظهر في الأفق وحده، بل هدايةً تولد في القلب، ثم تمشي على الأرض إنساناً جديداً.

الخلاصة الفكرية الجامعة

ليلة واحدة تكفي ليولد الإنسان من جديد

انتهت آيات سورة القدر، ولكن معناها لا ينتهي عند ﴿مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ فالفجر في هذه السورة ليس ستاراً يُسدل على ليلة عظيمة ثم يعود العالم بعده إلى عاداته الأولى، وإنما هو اللحظة التي ينتقل فيها أثر السماء إلى مسؤولية الأرض، وينتهي زمن التلقي لبدأ زمن الشهادة، ويخرج الإنسان من محرابه حاملاً في قلبه سؤالاً حاسماً: ماذا بقي فيَّ من الليلة بعد أن انقضت؟

نخمس آيات فقط، لكن كل آية منها فتحت باباً كاملاً من أبواب الوجود: بدأت السورة بباب الوحي: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، ثم فتحت باب الزمن المصطفى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ثم أوقفت العقل أمام عظمة لا يحيط بها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، ثم قلبت مقاييس الحساب: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، ثم كشفت عن ازدحام الأرض بأهل السماء: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا﴾، ثم ردت الأمر كله إلى مصدره: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، وأخيراً خلصت الليلة في كلمة تجمع أمن

الروح وطهارة المصير: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾، حتى انشق الظلام وظهر أول الضوء: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

إنها سورة تبدأ بالله وتنتهي بالفجر، وبين البدء والختام يقف الإنسان متلقياً من فضل الله ما يعيد بناء مفهومه عن الكتاب والوقت والعمل والعمر والقدر والسلام. فلو لم تنزل هذه السورة، لبقى الإنسان ينظر إلى الزمن كما تنظر الساعة إليه: وحدات متساوية تتوالى، لا فرق بين دقيقة ودقيقة إلا موقعها من العقارب؛ لكن سورة القدر أخبرتنا أن للزمن روحاً، وأن اللحظة قد تتسع بما تحمله حتى تتجاوز عمراً كاملاً، وأن قيمة الأيام لا تستمد من طولها، بل من مقدار الحق الذي يقع فيها، ومن مقدار الصدق الذي يملأها.

القرآن هو سر القدر

أول حقيقة ختمت بها رحلتنا أن القرآن هو الذي منح الليلة قدرها. لم تكن الليلة عظيمةً ثم نزل فيها القرآن مصادفةً، بل عظمت باختيار الله لها وإنزال كتابه فيها؛ فالقرآن هو مركز السورة وسر خيريتها، ومنه تفرعت بقية الأنوار. وهذا يجعل صلتنا بليلة القدر مرهونةً بصلتنا

بما نزل فيها؛ فليس الوفاء لليلة في كثرة الحديث عن علاماتها فحسب، وإنما في إعادة القرآن إلى موضع القيادة في حياتنا.

قد نعظم المصحف بوصفه شيئاً مقدساً، ونحفظه في أرفع المواضع، ونحسن ترتيب أغلفته، لكن التعظيم الأكل أن نعطي كلام الله حقه في توجيه أفكارنا ومواقفنا. فما أشد المفارقة بين يد ترفع المصحف ولسان يهتك أعراض الناس، وبين صوت يخشع في التلاوة ومعاملة تقسو على الضعيف، وبين أمة تفتتح دساتيرها بالآيات ثم تحكم علاقاتها العصبيات والمصالح. ليس هجر القرآن أن يعلوه الغبار وحده، بل أن تنلى كلماته ويُعزل ميزانه.

لقد نزل القرآن ليكون حياة لا زينة، ونوراً لا شعاراً، وميزاناً لا ترنيمَةً موسمية. يريد أن يدخل إلى موضع القرار في الإنسان: حين يغضب، وحين يحب، وحين يختلف، وحين يملك القوة، وحين يخاف الفقر، وحين تتعارض مصلحته مع الحق. هناك يتبين مقدار نزوله إلى القلب؛ لأن العلاقة الصادقة بالقرآن لا تظهر فقط في حلاوة التلاوة، بل في مرارة المجاهدة حين يطلب منا النص أن نتخلى عما نحب لهوانه عند الله.

والقرآن لا يمنح الإنسان قدره لمجرد حمل ألفاظه، وإنما بقدر ما يحمله القرآن على الاستقامة. فقد يحمل المرء المصحف في يده ويخالفه في سيرته، وقد يحفظ آيات كثيرةً ولا يحفظ بها حقوق الناس. إن القرآن حجة ورفعة لمن اتبعه، وقد يكون حجةً على من عرفه ثم جعل هواه فوقه؛ وليس المقصود من العلم أن يتسع العقل بالمعلومات وحدها، بل أن يضيق مجال الباطل في السلوك.

الإنسان الذي أكبر من ماضيه

أما الحقيقة الثانية فهي أن الإنسان لا ينبغي أن يُحبس في تاريخه؛ فرب ليلة خير من عمر طويل، ورب توبة صادقة تعيد توجيه مصير أثقلته سنوات الغفلة. ليست سورة القدر خطاباً للأولياء الذين لم يخطئوا، فلا أحد من البشر يعيش بلا تقصير، وإنما هي دعوة لكل من ظن أن ما فاته أكبر مما بقي، وأن خطاياہ أغلقت باب العودة، وأنه جاء متأخراً إلى الطريق.

تقول له السورة: لا تقس قدرتك على النهوض بعدد أعوام سقوطك، بل بسعة رحمة الله وصدق توبتك. الذي جعل ساعات

معدودةً خيراً من أكثر من ثلاث وثمانين سنة قادر على أن يبارك في بقية عمرك حتى تصبح أثقل من ماضيك كله. غير أن البركة لا تعني أن تمتلئ صفحةً جديدةً وأنت تحمي أسباب الصفحة القديمة؛ لا بد أن تدفن في الليلة شيئاً مما كان يفسدك: مظلمةً تُرد، أو ذنباً يُترك، أو عداوةً تُطفأ، أو كبرياءً يعترف بأنه أخطأ.

إن الماضي لا يتغير من حيث وقوعه، لكنه يتغير من حيث معناه وأثره. قد يكون ذنباً يدفع صاحبه إلى التواضع والتوبة، فيصبح بعد المغفرة سبباً في رحمته بالمذنبين، وقد يكون جرحاً ينضج به الإنسان حتى يصير أقدر على مداواة جراح غيره. وليس في ذلك مدح للذنب أو الألم، بل بيان لقدرة الله على إخراج الخير من المواقف التي ظن الإنسان أنها لا تنبت إلا الندم.

التوبة لا تحو الذاكرة بالضرورة، لكنها تزيل سمها؛ يبقى الإنسان عارفاً بما كان، لا ليتعذب به، بل حتى لا يعود إليه، وحتى يعرف أن ثباته فضل لا استحقاق. وكلما رأى عاصياً لم يقل: أنا خير منه، بل قال: لولا ستر الله وتوفيقه لكنت في موضعه، ولعل له توبةً ترفعه فوقتي.

ولعل أجمل ما تهبه ليلة القدر للمكسرين أنها تفصل بينهم وبين التعريفات النهائية التي ألصقوها بأنفسهم: أنا فاشل، أنا مذنب، أنا ضائع، أنا لا أغير. إنها تقول إن الإنسان ليس ما كانه فقط، بل ما يختار أن يصير إليه مستعيناً بالله. وما دام القلب ينبض، فإن باباً لا يزال مفتوحاً، لكن الخطر أن يظل الإنسان يصف الباب ولا يدخله.

العمر يقاس بالامتلاء لا بالامتداد

والحقيقة الثالثة أن الأعمار لا تتفاضل بكثرتها وحدها. قد يعيش الإنسان زمناً طويلاً ولا يحمل من عمره إلا تكرار الأيام، وقد يمنحه الله لحظات كثيفة بالمعنى تختصر له مسافات بعيدة. وليلة القدر تعيد الكرامة إلى القليل المبارك في عصر يقدر الكثرة: كثرة الإنتاج، وكثرة الظهور، وكثرة المتابعين، وكثرة المقتنيات، حتى صار بعض الناس يقيس وجوده بالأرقام التي تحيط به.

لكن الأرقام لا تستطيع وحدها قياس ما في القلب؛ فقد يتابع المرء آلاف الناس ولا يجد واحداً يأتمنه على أمره، وقد يجمع مكتبة ضخمة ولا يقرأ كتاباً يغيره، وقد يكتب صفحات كثيرة ولا يقول كلمة

باقية، وقد يشتهر اسمه بينما تضيع نفسه. وليلة واحدة خفية عن صخب العالم قد تكون خيراً من كل هذا، إذا امتلأت بصدق يجعل الإنسان أقرب إلى الله وأصلح للناس.

ليس معنى ذلك احتقار الكم؛ فكمثرة العمل الصالح خير إذا صحت النية، وطول العمر نعمة إذا حسن العمل، واتساع الأثر باب عظيم للنفع. وإنما المقصود ألا نعبد العدد، وألا نظن أن الكثرة تعوض غياب الروح. فالآلاف من الحركات الخالية من الإخلاص لا تساوي لحظةً حضر فيها القلب كاملاً، والسنوات التي لا تغير شيئاً في الإنسان لا تفوق يوماً اتخذ فيه قراراً أخلاقياً أعاد بناء حياته.

إننا لا نحتاج دائماً إلى وقت إضافي بقدر ما نحتاج إلى قلب أقل تشتتاً. كم من ساعات ضاعت لأن الإنسان كان حاضراً في كل مكان إلا موضعه، يفكر في الماضي أثناء الحاضر، ويخاف المستقبل حتى يعجز عن بنائه، ويراقب حياة الآخرين حتى تفوته حياته. البركة تبدأ من جمع القلب على ما بين يديه؛ أن يقرأ وهو يقرأ، ويصلي وهو يصلي، ويصغي إلى من يحادثه، ويعمل في وقته، ثم يترك لكل مرحلة حقها.

الغيب يعيد إلى العالم سعته

والحقيقة الرابعة أن الوجود أوسع من المرئي. ففي ليلة القدر تنزل الملائكة والروح، مع أن الأبصار لا تراهم، وتجري أمور بإذن الله لا تسجلها أدوات البشر. وهذا لا يجعل العالم أقل عقلانية، بل يجعله أقل اختزالاً؛ فليس العقل أن تنكر ما وراء الحس، وإنما أن تعرف حدود الحس وتلتقي خبر الغيب من مصدره الصادق.

إن الإيمان بالملائكة يحرر الإنسان من شعور الوحشة الوجودية؛ فهو لا يعيش في كون أصم، بل في خلق يسبح لله، وملائكة تقوم بأمره، ورب يسمع نجواه ويعلم سره. حين يذكر الله، لا يكون صوته حدثاً ضائعاً في فراغ، وحين يعمل خيراً خفياً لا يضيع لأنه لم يُصوّر، وحين يُظلم ولا يجد شاهداً من الناس، فليس معنى ذلك أن الحقيقة انطفأت؛ إذ ثمة رب يعلم، وملائكة تكتب، ويوم تظهر فيه السرائر.

لكن الإيمان بالغيب ليس عذراً لإهمال عالم الشهادة؛ فمن آمن بالملائكة التي تنفذ أمر الله كان أولى بتنفيذ ما كُلف به، ومن آمن بالقدر كان أولى بالسعي، لأنه يعلم أن الأسباب من قدر الله. المؤمن

لا ينتظر المعجزات ليغطي بها كسله؛ يبني ما يستطيع، ويصلح ما يستطيع، ثم يترك النتائج لمن يملكها.

إنه يدعو في ليلة القدر للمظلوم، ثم يبحث في النهار عما يستطيع أن يصنعه لنصرته؛ ويدعو للعلم، ثم يفتح كتاباً؛ ويدعو للرزق، ثم يطرق بابه الحلال؛ ويدعو لصلاح أهله، ثم يعاملهم بما يجب إليهم الصلاح. الدعاء ليس بديلاً من المسؤولية، بل هو الطاقة التي تحرر المسؤولية من الغرور واليأس.

الأمر لله، والعمل على الإنسان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقيم التوازن الذي تحتاجه النفس بين التوكل والعمل. فالأمر كله لله، لكن الله أمر الإنسان أن يسعى؛ والنتائج بيده، لكن الطريق له سنن؛ والدعاء سبب، والعمل سبب، والمشورة سبب، والصبر سبب. وليس من التوكل أن تهمل البذرة ثم تنتظر الثمرة، ولا من العقل أن تعبد البذرة وتنسى ربها.

إن المؤمن يتحرك بأقصى ما يملك من اجتهاد، ثم يسلم النتيجة لله. فإذا أُعطي شكر، ولم ينسب الفضل إلى عبقريته وحدها؛ وإذا مُنع

صبر، ولم يظن أن المنع إهانة نهائية؛ وإذا أخفق راجع أسبابه دون أن يحول الإخفاق إلى حكم على قيمته كلها. هو مسؤول عن صدق السعي، لا عن إخضاع الكون لرغبته.

وفي هذا التحرر سلام عظيم؛ لأن كثيراً من القلق يأتي من محاولة حمل ما ليس من تكليفنا. الإنسان يريد أن يضمن مشاعر الآخرين، ومستقبل أبنائه، ونتائج مشروعاته، وما سيقوله الناس بعده؛ وهذه كلها مجالات يستطيع التأثير فيها، لكنه لا يملكها. فإذا خلط التأثير بالملكية، عاش في خوف مستمر؛ أما إذا أدى ما عليه ورد الأمر إلى الله، تحولت مسؤوليته من عبء ساحق إلى عبادة.

ليس الرضا بالقدر إلغاءً للحزن؛ فقد يحزن القلب ويكون راضياً، لأن الحزن استجابة إنسانية للفقد، والرضا موقف إيماني من الله. وليس الصبر ألا يتألم المرء، بل ألا يحوله الألم إلى اعتراض وظلم ويأس. وقد تنزل الدموع بينما القلب يقول في أعماق موضع فيه: يا رب، لا أفهم حكمتك كلها، لكنني أثق بك.

السلام هو ثمرة الرحلة

وصلت السورة في نهايتها إلى ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ ، وكأن السلام هو الثمرة التي تنضج حين ينزل القرآن على القلب، ويعرف الإنسان قدر زمنه، ويؤمن بالغيب، ويسلم الأمر لله. ليس السلام فكرة تضاف إلى هذه المعاني، بل نتيجة طبيعية لها؛ فالذي عرف ربه لم يعد مضطراً إلى تأليه الخلق، والذي عرف الآخرة لم تعد خسائر الدنيا نهايةً له، والذي عرف قيمة الوقت لم يهدره في كل خصومة، والذي عرف عفو الله أصبح أقدر على العفو.

لكن السلام الذي تريده السورة ليس انعزالاً ناعماً عن وجع العالم؛ فالقرآن لا يصنع مؤمناً يحرس هدوءه الشخصي بينما الناس يحترقون من حوله. السلام القرآني موقف من الظلم، لأن الظلم هو الحرب الأولى على كرامة الإنسان؛ ومقاومته جزء من صناعة السلام، بشرط أن تُقاوم بميزان العدل، وألا يتحول المظلوم إلى نسخة أخرى من ظلمه.

يبدأ السلام من داخل النفس، لكنه لا يتوقف عندها. يبدأ حين يتوقف الإنسان عن خداع نفسه، ويسمي أمراضه بأسمائها، ويتوب منها؛ ثم يمتد إلى البيت رفقا وعدلاً، وإلى المجتمع حفظاً للحقوق، وإلى الكلمة صدقاً ومسؤولية، وإلى الاختلاف أدباً وإنصافاً. وكل من يطلب السلام من العالم وهو يزرع العنف في محيطه الصغير يطلب ثمرة تناقض بذوره.

إننا نريد عالماً عادلاً، لكن العدالة تبدأ حين لا نظلم من نختلف معه في نقل كلامه؛ ونريد سلطة تقبل النقد، لكن ذلك يبدأ حين نقبل نحن نقداً صادقاً دون انتقام؛ ونريد مجتمعاً رحيماً، لكن الرحمة تبدأ من طريقة خطابنا لمن لا يملك دفع أذانا. القيم الكبرى لا تولد دفعةً واحدةً في المؤسسات، بل تُمارس أولاً في التفاصيل التي يظنها الناس صغيرة.

الفجر ليس نهاية الليلة بل امتحانها

انتهت السورة عند ﴿مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ لأن الفجر لحظة انتقال: يخرج المؤمن من فضاء العبادة المكثفة إلى شوارع الحياة، ومن سهولة

التأثر في الليل إلى صعوبة الثبات في النهار. وهناك يبدأ الاختبار: هل سيظل القرآن مفتوحاً بعد طي سجادة القيام؟ وهل يبقى الدعاء حاضراً حين تعود الأسباب؟ وهل يحتفظ القلب بشيء من سلامه حين يستفزه الناس؟

في الليل يقول الإنسان: عفوت، وفي النهار يلتقي بمن أساء إليه؛ فيظهر مقدار عفوه. وفي الليل يعاهد الله على ترك الذنب، وفي النهار تعود دواعيه؛ فيظهر صدقه. وفي الليل يسأل الرزق الحلال، ثم تعرض عليه صفقة مشبوهة؛ فيتبين هل كان دعاؤه طلباً لله أم طلباً للمال بأي طريق. إن النهار يفسر الليل، والأخلاق تفسر العبادة.

ولذلك لا تكمن البطولة كلها في قيام ليلة، على عظم فضلها، بل في حماية أثرها بعد انقضائها. قد تكون التوبة لحظة، لكن الوفاء لها عمر؛ وقد يكون القرار في سجدة، لكن تنفيذه يحتاج إلى جهاد طويل. وليس الإنسان مطالباً بالألا يضعف بعد الليلة، بل بالألا يعقد سلاماً مع ضعفه، وألا يحول التعثر إلى إقامة دائمة.

ليجعل كل واحد من ليلة القدر فجراً صغيراً يحرسه: ورداً ثابتاً من القرآن، أو ركعتين لا يتركهما، أو صدقة خفية، أو عملاً فكرياً نافعاً، أو خلقاً يتدرب عليه، أو قطيعةً مع ذنب كان يستنزفه. فالدوام يحول لحظة الإشراق إلى طريق، والطريق يحول النية إلى مصير.

حين يطلع الفجر من داخل القلب

قد يطلع الفجر على المدينة، وتظل الروح في ليلها؛ وقد يبقى الواقع مظلماً، بينما يطلع في القلب فجر لا يراه أحد. الفجر الداخلي هو أن تتضح الوجهة بعد الحيرة، وأن يستعيد الإنسان ثقته بالله بعد الخوف، وأن يفهم أن جرحه ليس هويته، وأن يدرك أن ما فاتته لا يمنعه من صناعة ما بقي.

الفجر الداخلي لا يحتاج إلى إعلان؛ يبدأ سراً بين العبد وربّه. ربما لا يلاحظ الناس تغييره في الأيام الأولى، لكنه سيظهر مع الوقت في هدوء ردوده، وفي نقاء كلماته، وفي صبره على الطريق، وفي قدرته على الاعتذار، وفي قلة حاجته إلى استعراض عمله. التحولات

الصادقة تنو مثل الضوء: تبدأ رقيقةً عند طرف الأفق، ثم تتسع حتى يصير إنكارها مستحيلاً.

وما أجمل أن يخرج الإنسان من ليلة القدر وهو لا يقول: لقد أدركتها، كأنها جائزة ضمنها لنفسه، بل يقول: لعل الله أدركني فيها برحمته؛ لعل عفوه بلغ موضعاً ظننته لا يُغفر، ولعل دعاءً خافئاً فتح باباً لم أره، ولعل قياسي الناقص قبله الكريم. بين العبارتين مسافة من التواضع؛ الأولى قد تنظر إلى إنجاز العبد، والثانية تنظر إلى فضل الرب.

إن ليلة القدر لا تُمتلك؛ إنها هبة يتعرض لها الإنسان، ويجهتد في طلبها، ثم يبقى مفتقراً إلى القبول. لا يستطيع أحد أن يصدر لنفسه شهادةً بأن عمله رُفع كاملاً، ولذلك كان الصالحون يجمعون بين الاجتهاد والخوف، وبين الرجاء والاستغفار؛ يعملون كثيراً، لكنهم يرون فضل الله أكبر من أعمالهم، وتقصيرهم أوضح من أن يستتر عن بصائرهم.

السورة التي أنقذت القليل

لعل من أجمل رسائل سورة القدر أنها أنقذت معنى القليل من احتقارنا؛ ليلة قليلة الساعات، وسورة قليلة الآيات، ودعاء قليل الكلمات: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»، لكن وراء هذا القليل عوالم من الرحمة. كأن الله يعلم الإنسان ألا يحتقر البدايات والأعمال الخفية والكلمات الصادقة، فالقليل إذا مسه القبول لم يعد قليلاً.

قد لا تستطيع إصلاح الأمة كلها، لكنك تستطيع أن تكتب كلمة ترد بها فكرة باطلة، أو تربي طفلاً على الحق، أو تنصف مظلوماً في مجلس، أو تمنع إشاعة من المرور عبر لسانك. وقد لا تستطيع أن تملأ الليل كله بالقيام، لكنك تستطيع أن تقدم وسعك بصدق. الله لا يطالبك بوسع غيرك، ولا يقارن جرحك بعافيته، وإنما ينظر إلى ما صنعت بما أعطاك.

وقد تكون كلمة يكتبها صاحبها في ساعة إخلاص خيراً من صفحات يكتبها ليرى؛ وقد يبقى أثرها بعده لأنه لم يضع فيها نفسه

حاجراً بين القارئ والحقيقة. هكذا تعمل البركة: لا تُرى لحظة الزرع دائماً، لكنها تظهر في الثمرة، وربما لا يشهد الزارع مواسمها كلها.

ليلة القدر بوصفها مشروع حياة

إذا حُصرت ليلة القدر في ثواب ليلة واحدة، فهمنا جانباً عظيماً من فضلها، لكننا قد نفوّت أثرها التربوي الممتد. إنها تعلمنا كيف تُبنى الحياة كلها:

- ﴿أَنْ يَبْدَأَ التَّحُولَ مِنْ مَرَجِعَةِ عَلِيٍّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
 - ﴿وَأَنْ يُعْرِفَ قَدْرَ الْفُرْصَةِ قَبْلَ ضَيَاعِهَا: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ
 - وَأَنْ يَبْقَى الْعَقْلُ مُتَوَاضِعًا أَمَامَ مَا لَا يَحِيطُ بِهِ:
- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ
- وَأَنْ تُقَاسَ الْأَعْمَالُ بِالْبِرَّةِ وَالصَّدَقِ لَا بِالْعَدَدِ وَحْدَهُ: ﴿خَيْرٌ
- ﴿مِنْ أَلْفِ شَهْرِ
- وَأَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّ الْعَالَمَ أَوْسَعَ مِنْ حَوَاسِهِ: ﴿تَنْزِيلُ
- ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ
- وَأَنْ يَرِدَ الْأَمْرُ إِلَى صَاحِبِهِ مَعَ بَذْلِ أَسْبَابِ الْعَمَلِ: ﴿بِإِذْنِ
- ﴿رَبِّهِمْ
- ﴿وَأَنْ تَكُونَ ثَمَرَةُ الدِّينِ سَلَامًا قَائِمًا عَلَى الْحَقِّ: ﴿سَلَامٌ هِيَ

- وأن يتذكر أن الفرص محدودة، وأن كل ليل له نهاية:

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

هذه ليست معاني لليلة واحدة فحسب، بل خريطة للإنسان وهو يعبر الحياة: يتلقى النور، ويعرف قدر وقته، ويتواضع أمام الغيب، ويعمل دون عبادة العدد، ويتوكل دون تعطيل السبب، ويصنع السلام، ثم يمضي نحو فجره الأخير؛ اليوم الذي ينتهي فيه زمن العمل وتبدأ فيه رؤية ما قدم.

الفجر الأخير

لكل ليلة فجر، ولعمر الإنسان فجر أخير يخرج فيه من ليل الدنيا إلى حقيقة الآخرة. وكما أن القائم في ليلة القدر لا يدري متى تمر به لحظتها الأخص، فإن الإنسان لا يدري أي ساعة من عمره تكون خاتمته. وهذا الجهل ليس لعنة، بل دعوة إلى اليقظة؛ لو عرف المرء موعد موته ربما عبد اللحظة الأخيرة وحدها، لكن الله أخفاه حتى يبقى العمر كله موضع استعداد.

إننا نعيش بين غروب ميلادنا وفجر رحيلنا، وكل يوم ينقص من الليلة الكبرى التي نسميها العمر. لا يُراد لنا أن نرتعب من النهاية حتى نعجز عن العيش، بل أن نعيش بما يجعل النهاية اكتمالاً لا فضيحة؛ أن نترك خلفنا ما نستطيع من الخير، ونخرج من حقوق الناس، ونقول الكلمات التي ينبغي أن تقال، ونعتذر قبل أن يصبح الاعتذار مستحيلاً.

وقد يكون أكثر ما يندم عليه الإنسان عند اقتراب الفجر ليس الأشياء التي لم يملكها، بل المعاني التي أخرها: محبة لم يعبر عنها، وحق لم يرده، وكتاب لم يكتبه، وعلم لم ينشره، وسجدة سوفها، وخصومة كان يستطيع إنهاءها. ليلة القدر تضع الفجر أمامه كل عام حتى يتعلم ألا يؤجل حياته الحقيقية.

سلام على الطريق

وفي نهاية هذه الرحلة، لا نقف أمام سورة القدر بوصفها نصاً صغيراً فرغنا من تفسيره، بل بوصفها باباً دخلنا منه إلى رؤية أوسع للوجود. لقد علمنا أن السماء أقرب من أن نحصرها في البعد، وأن

الرحمة أوسع من أن يقيسها ماضيها، وأن الزمن أعمق من عقارب الساعة، وأن القلب يستطيع أن يولد بعد شيخوخة الغفلة، وأن الله يضع في القليل من بركته ما يتجاوز الكثير.

علمتنا أن الليل ليس دائماً عدواً للنور؛ ففي أشد الأوقات ظلمة قد ينزل القرآن، وتنزل الملائكة، ويولد السلام. وهذا عزاء لكل من يعيش ليله الشخصي: لا تحكم على القصة من ظلمتها الحالية، فلعل الله يعد في الغيب فجراً لم تر خيطه بعد. افعل ما عليك في الليل: قم، وادع، واصبر، وتمسك بالنور؛ فليس مطلوباً منك أن تخلق الفجر، وإنما أن تبقى على الطريق حتى يطلعه الله.

وسلام على الذين أثقلتهم ذنوبهم ثم أدركوا أن العفو أحب إلى الله
من هلاكهم، فعادوا.

وسلام على الذين جُرحت قلوبهم ولم يحولوا جراحهم إلى سكاكين
يجرحون بها غيرهم.

وسلام على الذين يعملون في الخفاء، ولا يعرف العالم أسماءهم،
وتعرف السماء صدقهم.

وسلام على الذين يقفون أمام الظلم دون أن يسمحوا له بأن يخلق ظالماً
جديداً داخلهم.

وسلام على الذين يكتبون كلمة الحق بحبرة الرحمة، فلا يجاملون الباطل
ولا يهدرون الإنسان.

وسلام على الذين دخلوا ليلة القدر يطلبون تغيير العالم، فاكتشفوا
أن أول موضع عهد الله إليهم بإصلاحه هو قلوبهم، ثم خرجوا
ليصلحوا بما استطاعوا مواضعهم في العالم.

وسلام على من لم يدرك من العبادة ما أراد، لكن الله رأى صدق
عذره وشوقه.

وسلام على من قام ولم يشعر بشيء استثنائي، فبقي يعبد الله وفاءً لا
طلباً للانفعال.

وسلام على كل إنسان صدق في لحظة، فبارك الله له فيها حتى
أصبحت خيراً من أعوام طويلة.

هذه هي سورة القدر: خمس آيات أنزلت على قلب الزمن معنى
الخلود، وأخبرت الإنسان أن عمره لا يُنقذ بكثرة أيامه وحدها، بل
بأن ينزل النور إلى أعماقه، وأن تتبدل موازينه، وأن يعرف ربه، وأن
يحمل السلام حتى يطلع فجره.

فإذا طلعت شمس الصباح بعد ليلة القدر، وبقيت في القلب آية
تقاوم النسيان، وتوبة تحرسها الإرادة، ومظلمة تبحث عن ردها، وكلمة
تتهيأ لتصنع خيراً، فقد انتهت الليلة في السماء، لكنها لم تنته في
الإنسان؛ لقد صارت فجراً يمشي به بين الناس.

سُورَةُ الْقَدْرِ

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ